أثر الشاعر

ملحق خاص لذكرى محمود درويش
يصدر عن "فصل المقال"
15 آب 2008

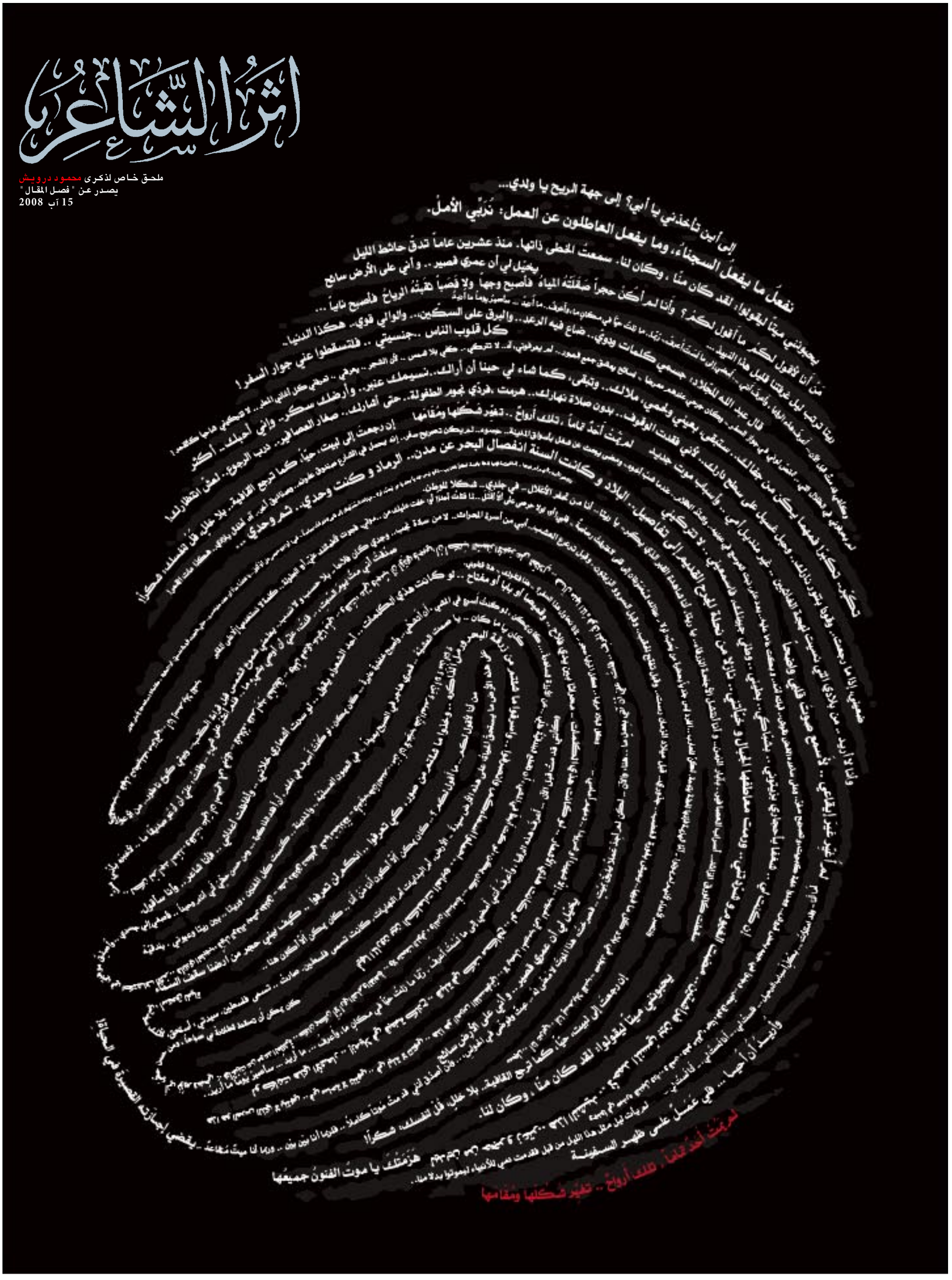

أثر الشاعر: المختارات

سامي مهنا

الشعر، تمازجٌ مركب بين الحقيقة والحلم، بين اللغة والحياة، بين الجزئيّ والكليّ، والذاتيّ والجماعي.

الشعر، تمازجٌ مركب بين الحقيقة والحلم، بين اللغة والحياة، بين الجزئيّ والكليّ، والذاتيّ والجماعي.
ويحلم الشاعر لكنه يلجم أحلامه قليلاً، كي لا يموت بجرعة فرح كاذب، ولكي يعلن الهدنة الوجيزة بين الواقع ورغبة تجاوزه، حتّى تأمّل الجهات الجديدة للغة والواقع والمعنى الجديد المولود منهما. الإبداع فردانيّة متطرّفة، لكن حين يتصّل العّام والخاص والجماعي بالشخصي في نقطة تداخل الذوات، يذوبُ الفرد والجماعة ويشكلان كلاً جديدًا بالمعنى الصوفي. وفلسطين التي تفجع مأساتها الأبدية أبناءها كل لحظة وتفجع مآسيها المتغيرة أبناءها إلى الأبد، تولد رغبة البحث عن الوجود داخل العدم، والمعنى داخل الفراغ، فتلد من لدنها الباحثين عن الإنسان الضائع وعن فردوسه المفقود فيه. ومن هذه الحالة الخاصة نشأ محمود درويش ليصعّد الحالة القائمة إلى مدارات جديدة للقلق والبحث عن معان وجودية جديدة داخل المنفى الكبير الذي يشّكّل مقبرة لحطام التاريخ والجغرافيا والهوية والإنسان.

محمود درويش عبقرية شعرية نادرة في تاريخنا الأدبي المعاصر، استطاعَ الاستفادة من التراث العربي والإنساني، دون أن يتّبع مدرسة أو استاذاً معيّنًا، فكوّن حالة خاصة تحوّلت بدورها إلى مدرسة ذات خصوصيّة استثنائية، شكّلت وستشكّل لبنة أخرى هامّة في البناء الأدبي العربي والعالمي. محمود درويش المسكون بالمأساة والحلم، والألم والأمل، والقيود والحريّة والشكّ واليقين، مسكون أيضًا بهاجس التطوّر الروحي والنفسيّ والحسيّ والذهنيّ والشعوريّ والثقافيّ واللغوي كي يتطوّر ويُطوّر انعكاس داخله أي النص، هذا الهاجس لم يفارقه حتّى آخر نقطة حبر من قلمه النشيط وآخر نبضة من قلبه المتعب.
في هذا الملحق المتواضع الذي يشكّل مختارات من مسيرة شاعرنا الكبير الأدبية احترنا في انتقاء القصائد والنصوص، والسبب هو انتقائية محمود درويش غير العادية خلال مسيرته الطويلة التي قاربت نصف قرن، فمحمود كان باعتقادي ناقدًا قاسيًا حيال نفسه، لا يقتنع بكل ما يكتبه، يعمل كثيرًا على

> محمود كان ناقدًا قاسيًا حيال نفسه، لا يقتنع بكل ما يكتبه، يعمل كثيرًا على تنقيح قصائدة كما صرّح بنفسه، لا يُدخل قصيدة إلى مجموعة جديدة إلا بعد طول تفكير، ولا يرضى بأي قصيدة إن لم تكن متجاوزةٌ لما سبقها

تنقيح قصائدة كما صرّح بنفسه، لا يُدخل قصيدة إلى مجموعة جديدة إلا بعد طول تفكير، ولا يرضى بأي قصيدة إن لم تكن متجاوزةٌ لما سبقها، لذا نرى أنّ معظم أعمال درويش – ولا سيّما الحديثة– تحمل قيمة فنيّة عالية، مما يصعّب انتقاء قصيدة وإهمال غيرها في ملحق أو كتاب. ولكن لا شك أنّ هنالك قصائد ونصوصًا نثرية تُعدُّ بنظرنا ونظر الكثيرين أهمّ من غيرها، إمّا من الجانب الفنّي وإمّا من خلال أهميّتها التاريخية المتعلّقة بالقضية الفلسطينية أو أنّها شكّلت منعطفًا ومحطة هامة في مسيرته الأدبية أو لشهرتها. ولذلك وقع الاختيار على القصائد المنشورة هنا، والحقيقة أنّنا لم نختر قصائد ونصوصًا من مراحله الأولى، لأنّ محمود درويش كما قلت سلفًا تطوّر فنيًا وفكريًا حتى آخر أعماله، لذا نجد أن قيمته تصاعدت تقريبًا دون انحناءات وخلال كل تاريخه الأدبي ممّا يشكل حالة نادرة عربيًا وعالميًا.
وقد قال محمود درويش إن تطورّه الشعري تم من خلال التراكم وليس من خلال القفز، وهذا يشرح الترابط الفنّي بين قصائده الأولى والأخيرة رغم تطوّره الكبير.
وقد اخترنا مقاطع من القصائد الطويلة والمطوّلات وذلك لضيق المساحة، ولكننا ننصح القارئ الكريم بأن يعود للقصائد ويقرأها كاملة، ليس لأنّها تستحق القراءات الكثيرة فحسب، بل لأنّ القصيدة لا تُقرأ أجزاء بل تُقرأ كلاً كاملاً كالسماء. والتجزيء هو ضرورة كما أسلفت.

وقصيدة "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا" من مجموعة "أحبك أو لا أحبك" الصادرة عام ١٩٧٢، هي تحوّل ما في شعر درويش، وللحق والإنصاف قد نبهني لهذه القصيدة الشاعر أدونيس، الذي يعتقد أنّها شكّلت منعطفًا نحو حداثة درويش الحقيقية. وإذا تمعّنا في القصيدة نلاحظ تغيرًا فنيًا على مستوى القصيدة الكلّ أي بمعناها التام وعلى مستوى الأجزاء أيّ بفنيّة مفرداتها وجملها الشعرية، وقصيدة "أحمد الزعتر"، من مجموعة "أعراس" الصادرة عام ١٩٧٧، المعروفة بأحمد العربي والتي لحنّها وغناها مرسيل خليفة تشكّل محطّة هامّة لقيمتها الفنية والسياسية وهي قصيدة مقاومة بامتياز، ففيها يحرّض الشاعر الفلسطيني على مقاومة الظلم والاحتلال والعدوان والعنف والفقر والحاجة والجوع والقبح وكل ما يسبب تعاسة الإنسان والجماعة والشعوب، وهي مستمدة من الواقع الفلسطيني المأساوي، في كل مكان وزمان بعد النكبة.
القصيدة هي "النشيد لأحمد المنسي بين فراشتين" كما وصفها الشاعر، واليدان من حجر وزعتر، ترمزان للقوّة والصلابة من ناحية وللحياة من ناحية أخرى. هذه القصيدة مركّبة جدًا وفيها تعقيدات ودلالات متعددة تخرج من رحم الواقع المأساوي وتحرض على المقاومة والتغيير.
ومديح الظلّ العالي هي مطوّلة يصف فيها درويش حرب لبنان الأولى وخروج المنظمة الفلسطينية من بيروت، وتعدُّ من أهم القصائد التي تصف بدقّة وفنية مرحلة تاريخية مفصلية في تاريخ الشعب الفلسطيني، وهي مدهشة كونها تجمع بين الوضوح والنبرة العالية والفنية مجتمعين. وكتاب ذاكرة للنسيان هي مكملة هذه القصيدة وقصيدة بيروت بصيغة النثر الذي يلج إلى التفاصيل اليومية التي لا تصلح أن تُكتب شعرًا. وقصائد "يحبونني ميتًا"، "مأساة النرجس ملهاة الفضة"، "الكمنجات" و"شتاء ريتا"، قصائد قريبة للمناخ نفسه وإن تحمل في طياتها تطورًا دائمًا، كما هو الحال في قصائد درويش الذي يتطور من خلال التراكم، كأنه يبني عمارته الشعرية طابقًا طابقًا، طامحًا أن يطأ الفضاء.

وبعد ذلك يتجاوز مرحلة، ويبدأ مرحلة فنيّة جديدة كما أعتقد، أو منعطفًا فنيًا آخر يبتدئ عند مجموعة "لماذا تركت الحصان وحيدًا" الصادرة عام ١٩٩٥ عن دار رياض الريّس التي نشرت كل باقي أعماله الأدبية. وقد اخترنا من هذه المجموعة قصيدة "أبد الصبّار". في هذه المجموعة تحديدًا وحتى كتابه الأخير "أثر الفراشة" ينعطف محمود درويش نحو التبسيط في الأسلوب والسعي إلى معان أكثر عمقًا، والابتعاد عن الاستعارات التقليديةّ والبلاغة بصيغها القديمة. ورأى الناقد صبحي حديدي أنّ مجموعة "لماذا تركت الحصان وحيدًا" جديدة على المشهد الشعري العربي بأسره، وفعلاً هنالك تجديد أسلوبيّ منذ هذه المجموعة نستطيع أن نقول إنها معادلة شعرية أو خلطة لغوية تخصّ محمود درويش وحده، ومن أهم سماتها الأناقة وفن الحذف حيث أنه لا نجد في القصائد زيادات لغوية وإضافات ونعوتات إلخ...
وقصيدة "كاما سوترا" العذبة من مجموعة سرير الغريبة وهي مجموعة غزلية، والمعروف أنّ انشغال محمود درويش بالقضية الفلسطينية لم يترك له المجال الكبير ليكتب عن الحب والمرأة.
وقد صرّح في لقاء صحافي له قبل فترة قصيرة أنه سيتفرغ نوعًا ما لقضايا الحب والجمال والحياة، إنّما وافته المنية قبل أن يكمل مشواره الساحر ومشروع قصيدته التي بدأت تصل في سنواته الأخيرة إلى مرحلة الصفاء. وقد اخترنا مقاطع من "جدارية محمود درويش" وهي مطولة رائعة يخاطب فيها الموت والحياة والأبدية، وقد كتبها إثر عملية قلب معقّدة، وقد شعر حينها أن الموت قريب منه، فخاطبه بخطاب مدهش، يذكّرنا بأعمال أدبية عظيمة مثل ملحمة جلجامش وغيرها. واخترنا من مجموعة "لا تعتذر عما فعلت" قصيدة "ولنا بلاد"، ومن مجموعة "كزهر اللوز أو أبعد" قصيدة "مقهى وأنت مع الجريدة" وقصيدة "لم تأت"، ونشير إلى قصيدة "لاعب النرد" التي لم تنشر في مجموعة وهي من آخر أعماله الشعرية، والتي بكّر محمود درويش في نشرها بغير عادته، فهو عامة وخصوصًا في الآونة الأخيرة لا ينشر قصائده قبل أن تطبع مجموعة جديدة له، أو في فترة قصيرة قبل أن تُطبع، وهذا دليل أنه أحسّ اقتراب الموت، وأنه ربما لن يصدر مجموعة جديدة بعد "أثر الفراشة" وأيضًا اسم هذه المجموعة "أثر" يدعو إلى التأمّل. وقد اخترنا مقاطع نثرية من "ذاكرة للنسيان"، ومقالة كتبها عند اندلاع الانتفاضة الثانية و له كتب نثرية أخرى آخرها "حيرة العائد".

وقد ابتدأنا المختارات بقصيدة "إجازة قصيرة" من مجموعته الأخيرة التي صدرت في كانون الثاني ٢٠٠٨، والمدهش الغريب أنه يفتتح هذه القصيدة بجملة "صدقّتُ أني مت يوم السبت" وقد مات محمود درويش يوم السبت كما كتب. وأنا أصدّق أنه شعر بموته قبل أوانه، وأعتقد دون مبالغة أو تضخيم أو تقديس أنّ محمود درويش وصل إلى علو روحي، وهذا العلو يتجلى واضحًا بصفاء قصائده ورؤيته ورؤياه.
محمود درويش أحد القامات الشعرية العربية والعالمية الشامخة في كل العصور، دخل إلى سجل الخالدين، شاعر قضية، وقضية شعر التي لا تنتهي ولا تُستنفد.

أثر الشاعر
ملحق خاص لذكرى محمود درويش

تحرير وإعداد سامي مهنا وعلاء حليحل
تصميم الغلاف عبد طميش
خطوط أحمد زعبي

نجد أن قيمته تصاعدت تقريبًا دون انحناءات وخلال كل تاريخه الأدبي ممّا يشكل حالة نادرة عربيًا وعالميًا

أثر الشاعر

إجازة قصيرة

صدّقتُ أني متُّ يومَ السّبت،
قلتُ: عليَّ أن أوصي بشيءٍ ما
فلم أعثرْ على شيءٍ..
وقلتُ: عليَّ أن أدعُوَ صديقًا ما
لأخبرَه بأنّي متُّ
لكن لمْ أجد أحدًا..
وقلتُ: عليَّ أن أمضِي إلى قبرِي
لأملأهُ، فلم أجد الطّريقَ
وظلَّ قبري خَالِيًا منّي
وقلتُ: عليَّ واجبٌ أنْ أؤدِّي واجبي:
أنْ أكتبَ السّطرَ الأخيرَ على الظّلالِ
فسالَ منها الماءُ فوقَ الحرفِ..
قلتُ: عليَّ أنْ آتي بفِعلٍ ما
هنا، والآنَ
لكن لم أجدْ عَملاً يليقُ بميّت
فصرختُ: هذا الموتُ لا مَعنًى لهُ.
عبثٌ وفوضًى في الحواس،
ولنْ أصدّق أنني قد متُّ مَوتاً كاملاً
فلربما أنا بيْنَ بيْنْ
وربما أنا ميتٌ مُتقاعدٌ
يقضي إجازَته القصيرةَ في الحياةِ!

سيرة

عاش محمود درويش (١٩٤١– ٢٠٠٨) بلا مدينة، موزّعاً على المنافي، ومات في هيوستن ولاية تكساس الأميركيّة، مساء السبت الماضي. كان طفلاً عندما ذاق طعم الهجرة، منذ خرجت عائلته من قرية "البروة" شمالي عكا، عام ١٩٤٨.
لجأت العائلة إلى جنوب لبنان، في رميش قرب جزين، وكان محمود الثاني بين خمسة إخوة وثلاث أخوات. بعد انقضاء عام، عاد متخفّياً مع العائلة ليكتشفوا أنّ قريتهم دمّرت (وأقيم على أنقاضها كيبوتس *أحيهود»)، فأقاموا في دير الأسد في الجليل، ثم استقروا في قرية الجديدة. واعتبرتهم إسرائيل "غائبين حاضرين" لأنهم كانوا غائبين لدى أول إحصاء إسرائيلي للعرب في البلاد، فعاشوا لاجئين في بلدهم. هذا الوضع أوحى له بقصيدة *بطاقة هويّة» (سجّل أنا عربي) عام ١٩٦٧.
انطلق محمود الشاب إلى حيفا في الستينيات، لينهي دراسته الثانويّة، ويعمل في الصحافة وينخرط في السياسة ويصبح شاعراً. كتبَ في صحيفة "الاتحاد" وترأس تحرير مجلة "الجديد" التابعتين للحزب الشيوعي الإسرائيلي. لوحق واعتقل مراراً، وفي السجن كتب قصيدته الشهيرة "أحنّ إلى قهوة أمي" عام ١٩٦٥، كما فُرضت عليه الإقامة الجبرية عقداً كاملاً، لكنه ظلّ يتنقّل بقصائده بين القرى، بعدما أصدر ديوانه الأول "عصافير بلا أجنحة" (١٩٦٠).
في عام ١٩٧٢ التحق بمنظمة التحرير الفلسطينية، واختار المنفى فمضى إلى موسكو ثم القاهرة، واستقرّ في بيروت. أشرف فيها على "مركز الأبحاث الفلسطينيّة"، وترأس تحرير مجلّة "شؤون فلسطينيّة"، وترأس رابطة الكتاب والصحافيين الفلسطينيين إلى أن أطلق مجلّة "الكرمل" عام ١٩٨٠ وانتقلت معه إلى قبرص فرام الله ثم احتجبت قبل سنوات في رام الله.
في عام ١٩٨١ كتب قصديته "أصدقائي لا تموتوا"، وكان قد شهد اغتيال صديقه ماجد أبو شرار، خلال مشاركتهما في مؤتمر عالمي. بعد اجتياح بيروت، أصدر درويش عمله النثري الأول "ذاكرة للنسيان". وتنقل بين تونس والقاهرة وقبرص وبلغاريا حتى استقرّ في باريس. عمل مستشاراً للرئيس ياسر عرفات، وانتخب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير عام ١٩٨٨، واستقال منها عام ١٩٩٦ احتجاجاً على اتفاق "أوسلو". عاد عام ١٩٩٤ ليقيم في رام الله، موزعاً أوقاته بينها وبين عمّان. أصدر أكثر من ثلاثين ديواناً، نذكر بينها: "عاشق من فلسطين" (١٩٦٦) و"آخر الليل" (١٩٦٧) و"حبيبتي تنهض من نومها" (١٩٧٠) و"ورد أقل" (١٩٨٧) و"لماذا تركت الحصان وحيداً" (١٩٩٥) و"حالة حصار" (٢٠٠٢) و"كزهر اللوز أو أبعد" (٢٠٠٥) وأخيراً "أثر الفراشة" (٢٠٠٨).
أما آخر قصائده فكانت "سيناريو جاهز" التي نشرت في الصحف قبل أسابيع.
حاز جوائز عالميّة عدّة منها "اللوتس" و"لينين" و"درع الثورة الفلسطينيّة"... حتى الـ "برنس كلاوس"، مروراً بـ "جائزة العويس». موقعه الرسمي:
www.mahmouddarwish.com

أنقاض قرية البروة– تصوير: مقبولة نصار

وافته المنية قبل أن يكمل مشواره الساحر ومشروع قصيدته التي بدأت تصل في سنواته الأخيرة إلى مرحلة الصفاء

سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا

يجيئون،
أبوابنا البحر، فاجأنا مطر. لا إله سوى الله. فاجأنا
مطر ورصاص. هنا الأرض سجادة، والحقائب
غربة
يجيئون،
فلتترجّل كواكب تأتي بلا موعد. والظهور التي
استندت للخناجر مضطرة للسقوط
وماذا حدث؟
أنت لا تعرف اليوم. لا لون. لا صوت. لا طعم
لا شكل.. يولد سرحان، يكبر سرحان،
يشرب خمرا و يسكرْ. يرسم قاتله، و يمزق
صورته. ثم يقتله حين يأخذ شكلا أخيرا
ويرتاح سرحان:
سرحان! هل أنت قاتل ؟
و يكتب سرحان شيئا على كم معطفه، ثمّ تهرب
ذاكرة من ملف الجريمة.. تهرب.. تأخذ
منقار طائر.
وتأكل حبة قمح بمرج بن عامر
وسرحان متّهم بالسكوت، وسرحان قاتل
وما كان حبّا
يدان تقولان شيئا، وتنطفئان
قيود تلد
سجون تلد
مناف تلد
ونلتف باسمك.
ما كان حبّا
يدان تقولان شيئا.. وتنطفئان
ونعرف، كنا شعوبا وصرنا حجارة
ونعرف كنت بلادا وصرت دخان
و نعرف أشياء أكثر
نعرف، لكنّ كل القيود القديمة
تصير أساور ورد
تصير بكارة
في المنافي الجديدة
ونلتف باسمك
ما كان حبّا
يدان تقولان شيئا و تنطفئان.
وسرحان يكذب حين يقول رضعت حليبك، سرحان
من نسل تذكرة، و تربى بمطبخ باخرة لم تلامس
مياهك. ما اسمك؟
– نسيت.
وما اسم أبيك؟
– نسيت
وأمك
– نسيت
وهل نمت ليلة أمس؟
– لقد نمت دهرا
حلمت؟
– كثيرا
بماذا
– بأشياء لم أرها في حياتي
وصاح بهم فجأة:
– لماذا أكلتم خضارا مهربة من حقول أريحا؟
– لماذا شربتم زيوتا مهربّة من جراح المسيح؟
وسرحان متّهم بالشذوذ عن القاعدة
رأينا أصابعه تستغيث. و كان يقيس السماء بأغلاله
زرقة البحر يزجرها الشرطيّ، يعاونه خادم آسيويّ،
بلاد تغّير سكانها، والنجوم حصى
وكان يغنّي مضى جيلنا وانقضى.
مضى جيلنا وانقضى.
وتناسل فينا الغزاة تكاثر فينا الطغاة. دم كالمياه.
وليس تجفّفه غير سورة عم وقبعة الشرطيّ
وخادمه الآسيوي. وكان يقيس الزمان بأغلاله
سألناه: سرحان عم تساءلت؟
قال: اذهبوا، فذهبنا
إلى الأمهات اللواتي تزوّجن أعداءنا.
وكنّ ينادين شيئا شبيها بأسمائنا.
فيأتي الصدى حرسا
ينادين قمحا
فيأتي الصدى حرسا
ينادين عدلا
فيأتي الصدى حرسا.
ينادين يافا
فيأتي الصدى حرسا
ومن يومها، كفت الأمهات عن الصلوات وصرنا
نقيس السماء بأغلالنا
وسرحان يضحك في مطبخ الباخرة
يعانق سائحة، والطريق بعيد عن القدس والناصرة
وسرحان متّهم بالضياع والعدميّة
وكلّ البلاد بعيدة.
شوارع أخرى اختفت من مدينته (أخبرته الأغاني
وعزلته ليلة العيد أن له غرفة في مكان)
ورائحة البن جغرافيا
وما شرّدوك.. وما قتلوك .
أبوك احتمى بالنصوص، و جاء اللصوص
ولست شريدا.. ولست شهيدا.. وأمك باعت
ضفائرها للسنابل و الأمنيات: وفوق سواعدنا
فارس لا يسلم (وشم عميق). وفوق أصابعنا
كرمة لا تهاجر (وشم عميق)
خطى الشهداء تبيد الغزاة
(نشيد قديم)
ونافذتان على البحر يا وطني تحذفان المنافي.. وأرجع
(حلم قديم –جديد)
شوارع أخرى اختفت من مدينته (أخبرته الأغاني
وعزلته ليلة العيد أن له غرفة في مكان .)
ورائحة البن جغرافيا
ورائحة البن يد
ورائحة البن صوت ينادي.. ويأخذ
رائحة البن صوت ومئذنه (ذات يوم تعود.)
ورائحة البن ناي تزغرد فيه مياه المزاريب ينكمش
الماء يوما ويبقى الصدى.
وسرحان يحمل أرصفة ونوادي ومكتب حجز التذاكر
سرحان يعرف أكثر من لغة و فتاة. ويحمل تأشيرة
لدخول المحيط و تأشيرة للخروج و لكنّ سرحان
قطرة دم تفتش عن جبهة نزفتها.. وسرحان
قطرة دم تفتّش عن جثة نسيتها.. وأين؟
ولست شريدا.. ولست شهيدا
ورائحة البن جغرافيا.
وسرحان يشرب قهوته ..
ويضيع

– لماذا أكلتم خضارا مهربة من حقول أريحا؟
– لماذا شربتم زيوتا مهربّة من جراح المسيح؟

أحمد الزعتر

(مقاطع)

ليدين من حَجَر وزعترْ
هذا النشيدُ .. لأحمد المنسيِّ بين فَراشتين
مَضَت الغيومُ وشَّردتني
ورمتْ معاطفها الجبالُ وخبأتني
نازلاً من نحلة الجرح القديم إلى تفاصيل
البلاد وكانت السنةُ انفصال البحر عن مدن
الرماد ، وكنتُ وحدي
ثم وحدي ..
آه يا وحدي ؟ وأحمدْ
كان اغترابَ البحر بين رصاصتين
مُخيّماً بنمو ، ويُنجب زعتراً ومقاتلين
وساعداً يشدُّ في النسيان
ذاكرةُ تجيء من القطارات التي تمضي
وأرصفةً بلا مستقبلين وياسمين
كان اكتشافَ الذات في العرباتِ
أو في المشهد البحريِّ
في ليل الزنازين الشقيقةِ
في العلاقات السريعة
والسؤال عن الحقيقةْ
في كل شيءٍ كان أحمدُ يلتقي بنقيضهِ
عشرين عاماً كان يسألْ
عشرين عاماً كان يرحلْ
عشرين عاماً لم تلده أمُّهُ إلاَ دقائقَ
في إناء الموز
وانسَحَبَتْ
يريد هويةً فيصاب بالبركانِ ،
سافرت الغيومُ وشَّردتني
ورَمَتْ مَعاطفها الجبالُ وخبأتني
أنا أحمد العربيُّ – قالَ
أنا الرصاصُ البرتقالُ الذكرياتُ
وجدتُ نفسي قرب نفسي
فابتعدتُ عن الندى والمشهد البحريّ
تل الزعتر الخيمة
وأنا البلاد وقد أتَتْ
وتقمَّصتني
وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد
وجدتُ نفسي ملء نفسي ...

لم تأت أغنيتي لترسم أحمدَ الكحليَّ في الخندقْ
الذكرياتُ وراء ظهري ، وهو يوم الشمس والزنبق
يا أيها الولد الموزَّع بين نافذتين
لا تتبادلان رسائلي
قاومْ
إنَّ التشابه للرمال .. وأنتَ للأزرقْ
وأحمدُ يفرُكُ الساعاتِ في الخندقْ
لم تأتِ أغنيتي لترسمَ أحمد المحروق بالأزرق
هو أحمد الكوْنيُّ في هذا الصفيح الضيِّقِ
المتمزِّق الحالمْ
وهو الرصاص البرتقاليُّ .. البنفسَجَةُ
الرصاصيَّةْ

وهو اندلاعُ ظهيرة حاسمْ
في يوم حريَّةْ

... سائراً بين التفاصيل اتكأتُ على مياهٍ
فانكسرتُ
أكلّما نَهَدَتْ سفرجلةٌ نسيتُ حدود قلبي
والتجأتُ إلى حصارٍ كي أحدِّد قامتي
يا أحمد العربيُّ ؟
لم يكذب عليَّ الحب . لكن كُلّما جاء المساء
امتصَّني جَرَسٌ بعيدٌ
والتجأتُ إلى نزيفي كي أُحدِّد صورتي
يا أحمد العربيُّ
لم أغسل دمي من خبز أعدائي
ولكن كُلّما مرَّت خُطايَ على طريقٍ
فرَّت الطرقُ البعيدةُ والقريبةُ
كلّما آخيتُ عاصمةً رمَتني بالحقيبة
فالتجأتُ إلى رصيف الحلم والأشعار
كم أمشي إلى حُلُمي فتسبقني الخناجرُ
آه من حلمي ومن روما ..
وحيفا من هنا بدأتْ
وأحمدُ سُلَّمُ الكرملْ
وبسملة الندى والزعتر البلدي والمنزلْ

كان المخيَّم جسمَ أحمدْ
كانت دمشقُ جفونَ أحمدْ
كان الحجاز ظلال أحمدْ
صار الحصارُ مُرورَ أحمدَ
فوق أفئدة الملايين الأسيرهْ
صار الحصارُ هُجُومَ أحمدْ
والبحر طلقته الأخيرة !

يا خَصْرَ كلِّ الريح
يا أسبوع سُكَّرْ !
يا اسم العيون ويا رُخاميّ الصدى
يا أحمد المولود من حجر وزعترْ
ستقول : لا
ستقول : لا
جلدي عباءةُ كلِّ فلاح سيأتي من حقول التبغ
كي يلغي العواصمْ
وتقول : لا
جسدي بيان القادمين من الصناعات الخفيفةِ
والتردد .. والملاحمْ
نحو اقتحام المرحلةْ
وتقول :لا
ويدي تحياتُ الزهور وقنبلهْ
مرفوعة كالواجب اليومي ضدَّ المرحلهْ
وتقول : لا
يا أيها الجسد المُضرَّج بالسفوحِ
وبالشموس المقبلهْ

وتقول : لا
يا أيها الجسد الذي يتزوج الأمواج
فوق المقصلهْ
وتقول : لا
وتقول : لا
وتقول : لا
يا اسم الباحثين عن الندى وبساطة الأسماء
يا اسم البرتقالهْ
يا أحمد العاديّ !
كيف مَحَوْت هذا الفارقَ اللفظِّي بين الصخر والتفَّاح ..
بين البندقية والغزالهْ !

يا أحمدُ العربيُّ .. قاومْ
لا وقت للمنفى وأغنيتي ..
سنذهب في الحصار
حتى رصيف الخبز والأمواج
تلك مساحتي ومساحة الوطَن – المُلازِمْ
موتٌ أمام الحلْم
أو حلم يموتُ على الشعار
فاذهب عميقاً في دمي واذهب عميقاً في الطحين ..
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين
...ولَهُ انحناءاتُ الخريف
لَهُ وصايا البرتقال
لَهُ القصائد في النزيف
لَهُ تجاعيدُ الجبال
لَهُ الهتافُ
لَهُ الزفافُ
لَهُ المجَّلات المُلوَّنةُ
المراثي المطمئنةُ
ملصقات الحائط
العَلَمُ
التقدُّمُ
فرقةُ الإنشاد
مرسومَ الحداد
وكل شيء كل شيء كل شيء
حين يعلن وجهه للذاهبين إلى ملامح وجههِ
يا أحمدُ المجهولُ ..
كيف سَكَنْتَنا عشرين عاماً واختفيتَ
وظلَّ وجهُكَ غامضاً مثل الظهيرة
يا أحمد السريّ مثل النار والغابات
أشهرْ وجهك الشعبيَّ فينا
واقرأ وصيَّتكَ الأخيرة
يا أيها المتفرِّجون ! تناثروا في الصمت
وابتعدوا قليلاً عنه كي تجدوهُ فيكم
حنطةً ويدين عاريتين
وابتعدوا قليلاً عنه كي يتلو وصيَّتَهُ
على الموتى إذا ماتوا
وكي يرمي ملامحَهُ
على الأحياء إن عاشوا ..!

(من ديوان „أعراس“ ١٩٧٧)

كان المخيَّم جسمَ أحمدْ / كانت دمشقُ جفونَ أحمدْ / كان الحجاز
ظلال أحمدْ / صار الحصارُ مُرورَ أحمدَ

عابرون في كلام عابر

أيها المارون بين الكلمات العابره
احملوا اسماءكم، وانصرفوا
واسرقوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكره
وخذوا ما شئتم من صور ، كي تعرفوا
انكم لن تعرفوا
كيف يبني حجر من ارضنا سقف السماء

أيها المارون بين الكلمات العابره
منكم السيف . ومنا دمنا
منكم الفولاذ والنار . ومنا لحمنا
منكم دبابة اخرى . ومنا حجر
منكم قنبلة الغاز . ومنا المطر
وعلينا ما عليكم من سماء وهواء
فخذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا
وادخلوا حفل عشاء راقص.. وانصرفوا
وعلينا ، نحن ، ان نحرس ورد الشهداء
وعلينا ، نحن ، ان نحيا كما نحن نشاء!

أيها المارون بين الكلمات العابرة
كالغبار المر ، مروا أينما شئتم ولكن
لا تمروا بيننا كالحشرات الطائرة
فلنا في ارضنا ما نعمل
ولنا قمح نربيه ونسقيه ندى اجسادنا
ولنا ما ليس يرضيكم هنا:
حجر .. او خجل
فخذوا الماضي، اذا شئتم، الى سوق التحف
واعيدوا الهيكل العظمى للهدهد، إن شئتم،
على صحن خزف.
فلنا ما ليس يرضيكم : لنا المستقبل
ولنا في ارضنا ما نعمل

أيها المارون بين الكلمات العابره
كدسوا اوهامكم في حفرة مهجورة ، وانصرفوا
واعيدوا عقرب الوقت الى شرعية العجل المقدس
أو الى توقيت موسيقى مسدس!
فلنا ما ليس يرضيكم هنا ، فانصرفوا
ولنا ما ليس فيكم، وطن ينزف شعبا ينزف
وطنا يصلح للنسيان او للذاكرة
أيها المارون بين الكلمات العابره
آن أن تنصرفوا
وتقيموا أينما شئتم ، ولكن لا تموتوا بيننا
فلنا في ارضنا ما نعمل
ولنا الماضي هنا
ولنا صوت الحياة الاول
ولنا الحاضر، والحاضر ، والمستقبل
ولنا الدنيا هنا... والآخرة
فاخرجوا من أرضنا
من برنا.. من بحرنا
من قمحنا.. من ملحنا.. من جرحنا
من كل شيء ، واخرجوا
من مفردات الذاكره
أيها المارون بين الكلمات العابره!

بيروت

(مقاطع)

تفاحةٌ للبحر، نرجسة الرخام، فراشةٌ حجريةٌ بيروت
شكل الروح في المرآة
وصف المرأة الأولى ورائحة الغمام
بيروت من تعب ومن ذهب، وأندلس وشام .
فضّة، زبد، وصايا الأرض في ريش الحمام.
وفاة سنبلة، تشرّد نجمة بيني وبين حبيبتي بيروت .
لم أسمع دمي من قبل ينطق باسم عاشقة تنام على
دمي... و تنام ...
من مطر على البحر اكتشفنا الإسم، من طعم الخريف
وبرتقال
القادمين من الجنوب، كأنّنا أسلافنا نأتي إلى بيروت كي
نأتي إلى
بيروت ...
من مطر بنينا كوخنا، والريح لا تجري فلا نجري، كأنّ
الريح
مسمار على الصلصال، تحفر قبونا فننام مثل النمل في
القبو
الصغير
كأننا كنا نغنيّ خلسة :
بيروت خيمتنا
بيروت نجمتنا
سبايا نحن في هذا الزمان الرخو
أسلمنا الغزاة إلى أهالينا
فما كدنا نعضّ الأرض حتى انقضّ حامينا
على الأعراس و الذكرى فوزّعنا أغانينا على الحرّاس
من ملك على عرش
إلى ملك على نعش
سبايا نحن في هذا الزمّان الرخو
لم نعثر على شبه نهائي سوى دمنا
ولم نعثر على ما يجعل السلطان شعبيّا
ولم نعثر على ما يجعل السجان وديا
ولم نعثر على شيء يدلّ على هويتنا
سوى دمنا الذي يتسلّق الجدران ...
ننشد خلسة:
بيروت خيمتنا
بيروت نجمتنا
...و نافذة تطلّ على رصاص البحر
يسرقنا جميعا شارع و موشّح
بيروت شكل الظلّ
أجمل من قصيدتها و أسهل من كلام الناس
تغرينا بداية مفتوحة و بأبجديات جديدة :
بيروت خيمتنا الوحيدة
بيروت نجمتنا الوحيدة
هل تمددنا على صفصافها لنقيس أجسادا محاها البحر
عن أجسادنا
جئنا إلى بيروت من أسمائنا الأولى
نفتّش عن نهايات الجنوب و عن وعاء القلب ...
سال القلب سال ...
وهل تمدّدنا على الأطلال كي نكون الشمال بقامة

مديح الظل العالي

الأغلال؟
مال الظلّ مال عليّ، كسّرني و بعثرني
وطال الظلّ طال...
ليسرو الشجر الذي يسرو ليحملنا من الأعناق
عنقودا من القتلى بلا سبب...
وجئنا من بلاد لا بلاد لها
وجئنا من يد ألفصحى و من تعب...
خراب هذه الأرض التي تمتدّ من قصر الأمير إلى زنازننا
ومن أحلامنا الأولى إلى... حطب
فأعطينا جدارا واحدا لنصيح يا بيروت!
أعطينا جدارا كي نرى أفقا و نافذة من اللهب
وأعطينا جدارا كي نعلّق فوقه سدوم
التي انقسمت إلى عشرين مملكة
لبيع النفط ...و العربي
وأعطينا جدارا واحدا
لنصيح في شبه الجزيرة :
بيروت خيمتنا الأخيرة
بيروت نجمتنا الأخيرة

أفق رصاصيّ تناثر في الأفق
طرق من الصدف المجوّف... لا طرق
ومن المحيط إلى الجحيم
من الجحيم إلى الخليج
ومن اليمين إلى اليمين إلى الوسط
شاهدت مشنقة فقط
شاهدت مشنقة بحبل
واحد
من أجل مليوني عنق !
بيروت! من اين الطريق إلى نوافذ قرطبه
أنا لا أهاجر مرتّين
ولا أحبّك مرتين
ولا أرى في البحر غير البحر ...
لكنيّ أحوّم حول أحلامي
وأدعو الأرض جمجمة لروحي المتعبه
وأريد أن أمشي
لأمشي
ثم أسقط في الطريق
إلى نوافذ قرطبه
بيروت شاهدة على قلبي
و أرحل عن شوارعها و عنيّ
عالقا بقصيدة لا تنتهي
و أقول ناري لا تموت ...
على البنايات الحمام
على بقاياها السلام...

بحر لأيلول الجديد
خريفنا يدنو من الأبواب
بحرٌ للنشيد المر
لمنتصف النهار
بحرٌ لرايات الحمام
لظلنا، لسلاحنا الفرديّ
بحرٌ للزمان المستعار
ليديكَ، كم من موجةٍ سرقت يديك
من الإشارة وانتظاري
ضع شكلنا للبحر
ضع كيس العواصف عند أول صخرةٍ
واحمل فراغكَ. . . وانكساري
بحرٌ جاهزٌ من أجلنا
دع جسمك الدامي يصفق لخريف المر أجراساً
ستتسع الصحارى عما قليل
حين ينقض الفضاء على خطاك
كنا نقطة التكوين، كنا وردة السور الطويل وما تبقى من
جدار
ماذا تبقى منك غير قصيدة الروح المحلّق في دخان
القيامة
وقيامة بعد القيامة
خذ ثثاري وانتصر في ما يمزق قلبك العاري
ويجعلك انتشاراً للبذار
قوساً يلّم الأرض من أطرافها
جرساً لما ينساه سكان القيامة من معانيك
انتصرْ
إنّ الصليب مجالك الحيويُّ
مسراك الوحيد من الحصار إلى الحصار

بحرٌ لأيلول الجديد. وأنت إيقاع الحديد
تدقّني سحباً على الصحراء
فلتمطر لأسحب هذه الأرض الصغيرة من إساري
لا شيء يكسرنا، وتنكسر البلاد على أصابعنا كفخارٍ
وينكسر المسدس من تلهفكَ
انتصرْ، هذا الصباح، ووحّد الرايات والامم الحزينة
والفصول
كلّ ما أوتيت من شبق الحياة
بطلقة الطلقات... باللاشيء

وحدنا بمعجزة فلسطينيةٍ
نم يا حبيبي، ساعةً
لنمر من أحلامك الأولى إلى عطش البحار. . . إلى البحارِ
نم يا حبيبي ساعةً
حتى تتوب المجدلية مرة أخرى، ويتضح انتحاري
نم، يا حبيبي، ساعةً
حتى يعود الروم، حتى نطرد الحراس عن أسوار قلعتنا
وتنكسر الصّواري
كي نصفق لاغتصاب نسائنا في شارع الشرف التجاري
نم يا حبيبي ساعةً حتى نموت

هي ساعة للانهيار
هي ساعة لوضوحنا
هي ساعة لغموض ميلاد النهار

كم كنت وحدك، يا ابن أمّي
يا ابن أكثر من أبٍ
كم كنت وحدكْ

القمح مرٌّ في حقول الآخرين
والماء مالح، والغيم فولاذٌ
وهذا النجم جارح
وعليك أن تحيا وأن تحيا
وأن تعطي مقابل حبّة الزيتون جلدك
كم كنت وحدك

لا شيء يكسرنا، فلا تغرق تماما
في ما تبقى من دمٍ فينا
لنذهب داخل الروحِ المحاصر بالتشابه واليتامى
يا ابن الهواء الصلبِ، يا ابن اللفظة الأولى على الجزر
القديمة
يا ابن السيدة البحيرات البعيدة
يا ابن من يحمي القدامى. . .. من خطيئتهم
ويطبع فوق وجه الصخر برقاً أو حماما
لحمي على الحيطان لحمك، يا ابن أمي
جسدٌ لأضراب الظلال
وعليك أن تمشي بلا طرُقٍ
وراء ، أو أماماً، أو جنوباً أو شمال
وتحرّك الخطوات بالميزان
حين يشاء من وهبوك قيدك
ليزينوك ويأخذوك إلى المعارض كي يرى الزوار مجدك

كم كنت وحدك!
كم كنت وحدك!

هي هجرة أخرى
فلا تكتب وصيتك الأخيرة والسلاما
سقط السقوطُ، وأنت تعلو
فكرةً
ويداً
و . . . شاما!
لا برّ إلا ساعداك
لا بحر إلا الغامض الكحليّ فيك
فتقمص الأشياء كي تتقمص الأشياء خطوتك الحراما
واسحب ظلالك من بلاط الحاكم العربيّ
حتى لا يعلقها وساما
واكسر ظلالك كلها كيلا يمدوها بساطاً أو ظلاما
كسروكَ، كم كسروك كي يقفوا على ساقيك عرشا
وتقاسموك وأنكروك وخبّأوك وأنشأوا ليديك جيشا
حطّوك في حجرٍ .. وقالوا: لا تسلّم

لنذهب داخل الروح المحاصر بالتشابه واليتامى
يا ابن الهواء الصلبِ، يا ابن اللفظة الأولى على الجزر القديمة

مديح الظل العالي

ورموك في بئر .. وقالوا: لا تسلّم
وأطلت حربك، يا ابن أمي
ألف عامٍ ألف عامٍ ألف عامٍ في النهار
فأنكروكَ لأنهم لا يعرفون سوى الخطابةِ والفرارِ

هم يسرقون الآن جلدك
فاحذر ملامحهم.. وغمدك
كم كنت وحدك، يا ابن أمي
يا ابن اكثر من أبٍ
كم كنت وحدك!ً

والآن، والأشياء سيدةٌ، وهذا الصمت عالٍ كالذبابه
هل ندرك المجهول فينا؟ هل نغني مثلما كناً نغني؟
سقطت قلاع قبل هذا اليوم، لكن الهواء الآن حامض
وحدي أدافع عن هواءٍ ليس لي
وحدي أدافع عن هواءٍ ليس لي
وحدي على سطح المدينة واقفٌ
أيوب مات، وماتتِ العنقاءُ وانصرفَ الصحابه
وحدي. أراود نفسيَ الثكلى فتأبى أن تساعدني على
نفسي
ووحدي... كنت وحدي
عندما قاومت وحدي. . . وحدة الروح الأخيره
لا تذكر الموتى، فقد ماتوا فرادى أو.. عواصم
سأراك في قلبي غداً، سأراك في قلبي

وأجهش يا ابن أمي باللغة
لغةٍ تفتش عن بنيها، عن أراضيها وراويها
تموتُ ككل من فيها، وترمى في المعاجم
هي آخر النخل الهزيل وساعةُ الصحراءِ
آخر ما يدل على البقايا
كانوا! ولكن كنت وحدك
كم كنت وحدك تنتمي لقصيدتي، وتمدّ زندك
كي تحوّلها سلالم، أو بلاداً، أو خواتم
كم كنت وحدك يا ابن أمي
يا ابن أكثر من أبٍ
كم كنت وحدك!ً

والآن، والأشياء سيّدةٌ، وهذا الصمت يأتينا سهاماً
هل ندرك المجهول فينا. هل نغني مثلما كنا نغني؟
آه، يا دمنا الفضيحة، هل ستأتيهم غماما
هذه أمم تمرُّ وتطبخ الأزهار في دمِنا. . .. وتزداد انقساما
هذه أمم تفتّش عن إجازاتها من الجمَل المزخرفِ
هذه الصحراء تكبر من حولنا
صحراء من كل الجهات
صحراء تأتينا لتلتهم القصيدة والحساما
هل نختفي فيما يفسّرُنا ويشبهنا
وهل.. هل نستطيع الموت في ميلادنا الكحليّ
أم:
نحتل مئذنة ونعلن في القبائل أن يثرب أجرت قرآنها
ليهود خيبر؟
الله أكبر
هذه آياتنا، فأقرأ

باسم الفدائي الذي خلقا
من جزمة أُفٍّقا
باسم الفدائي الذي يرحل
من وقتكم.. نداه الأول
الأول.. الأول
سندمر الهيكل. . .. سندمر الهيكل
أشلاؤنا أسماؤنا. لا . . . لا مفرٌّ
سقط القناع عن القناع عن القناع
سقط القناع
لا إخوةٌ لك يا أخي، لا أصدقاءُ يا صديقي، لا قلاع
لا الماء عندكَ، لا الدواء ولا السماء ولا الدماءُ ولا
الشراع
ولا الأمام ولا الوراء
حاصر حصاركَ . . ... لا مفرٌّ
سقطت ذراعك فالتقطها
واضرب عدوك .. لا مفرٌّ
وسقطت قربك، فالتقطني
واضرب عدوك بي.. فأنت الآن حرٌّ
حرٌّ. . . وحرٌّ
قتلاك أو جرحاك فيك ذخيرةٌ
فاضرب بها. اضرب عدوك.. لا مفرٌّ
أشلاؤنا أسماؤنا
حاصر حصارك بالجنونِ . .... وبالجنونِ . . ....
وبالجنونْ
ذهب الذين تحبهم ذهبوا
فإما أن تكون أو لا تكون
سقط القناع عن القناع عن القناع
سقط القناع
ولا أحدْ
إلاك في هذا المدى المفتوح للأعداء والنسيان
فاجعل كلّ متراسٍ بلد
لا . . .. لا أحدْ
سقط القناع:
عربٌ أطاعوا رومهم
عربٌ وباعوا روحهم
عربٌ. . .. وضاعوا
والله غمّس باسمك البحري أسبوع الولادة واستراح إلى
الأبد
كُن أنتَ. كن حتى يكون!
لا . . .. لا أحدْ
هل أنا ألفٌ، وباءٌ للكتابة أم لتفجير الهياكل؟
كم سنه كنا معاً طوق النجاة لقارة محمولةٍ فوق السراب
ودفتر الإعراب؟
كم عربٌ أتوك ليصبحوا غرباً
وكم غربٌ أتاكِ ليدخل الإسلام من باب الصلاة على
النبيِّ
وسنّة النفط المقدّس ؟ كم سنة
وأنا أصدِّق أن لي أماً ستتبعني
وأنك تكذبين على الطبيعة والمسدّس. كم سنة!
من تزوجني ضفائرنا لأشنق رغبتي وأموت كالأمم
القديمة
كم سنه أغريتني بالمشي نحو بلادي الأولى

وبالطيران تحت سمائي الأولى
وباسمك كنت أرفع خيمتي للهاربين من التجارة والدعارة
والحضارة
كم سنة كنا نرش على ضحايانا كلام البرق :
بعد هنيهة سنكون ما كنا وما سنكون
إما أن نكونَ نهارك العالي . . .. وإما أن نعود إلى
البحيرات القديمة
كم سنة لم تسمعيني جيداً . لم تردعيني جيداً
لم تحرميني من فواكهك الجميلة
لم تقولي:
حين يبتسم المخيم تعبس المدن الكبيرة !!
كم سنة
قلنا معًا: أنا لا أشاء، ولا تشائين . اتفقنا . كلنّا في البحر
ماء
كم سنه كانت تنظّمنا يدُ الفوضى
تعبنا من نظام الغاز
من مطر الأنابيب الرتيب
ومن صعود الكهرباء إلى الغرف
حريتي فوضاي. إني أعترف
وسأعترف بجميع أخطائي، وما أترف الفؤاد من الأماني
ليس من حق العصافير الغناء على سرير النائمين
والإيديولوجيا مهنة البوليس في الدول القوية
من نظام الرقّ في روما
إلى منع الكحول وآفة الأحزاب في ليبيا الحديثة
كم سنة
نحن البداية والبداية والبداية .كم سنة
كنا هناك. ومن هنا ستهاجر العربُ
لعقيدةٍ أخرى وتغتربُ
قصبٌ هياكلنا
وعروشنا قصبُ
في كل مئذنة
حاوٍ ، ومغتصبٌ
يدعو لأندلس
إن حوصرت حلبُ
بيروت . . . فجراً
يطلق البحر الرصاص على النوافذ
يفتح العصفور أغنيةً مبكرةً
يطيّرُ جارنا رفّ الحمام إلى الدخان
يموت من لا يستطيع الركض في الطرقات
قلبي قطعة من برتقال يابس
أهدي إلى جاري الجريدة كي يفتش عن أقاربه . . . .
أعزيه غداً
أمشي لأبحث عن كنوز الماء في قبو البناية
يدخل الطيران أفكاري ويقصفها
فيقتل تسع عشرة طفلة
يتوقف العصفور عن إنشاده
والموت يأتينا بكل سلاحه الجويّ والبريّ والبحريّ
ألف قذيفة أخرى . . .. ولا يتقدم الأعداء شبراً واحداً
ما زلت حياً – ألف شكرٍ للمصادفة السعيدة
يبذل الرؤساء جهداً عندٍ أمريكا لتفرج عن مياه الشرب
كيف سنغسل الموتى؟
ويسأل صاحبي: وإذا استجابت للضغوط فهل سيسفر

حاصر حصارك بالجنونِ . .... وبالجنونِ . . .... وبالجنونْ
ذهب الذين تحبهم ذهبوا

يحبّونني ميتًا

يُحبُّونَني مَيِّتاً لِيَقُولُوا: لَقَدْ كَان مِنَّا، وَكَانَ لَنَا .
سَمِعْتُ الخُطَى ذَاتَهَا، مُنْذُ عِشرينَ عَاماً تدقُّ عَلَى حَائط اللَّيْل .
تَأتي وَلاَ تَفْتَحُ البَابَ .
لَكِنَّهَا تَدْخُلُ الآن .
يَخْرُجُ مِنْهَا الثَّلاَثَةُ: شَاعِرٌ، قَاتِلٌ، قَارِئٌ .
أَلاَ تَشْرَبُونَ نَبيذاً؟ سَأَلْتُ، سَنَشْرَبُ .
قَالُوا. مَتَى تُطْلَقُونَ الرَّصاصَ عَلَيَّ؟ سَأَلْتُ .
أجابوا: تَمَهَّلْ! وَصفُّوا الكُؤُوسَ وَرَاحُوا
يُغَنُّونَ للشَّعْب ، قُلْتُ: مَتَى تَبْدَءونَ اغْتِيَالي؟
فَقَالُوا: ابْتَدَأنَا... لِمَاذَا بَعَثْتَ إِلَى الرُّوحِ أَحْذِيَةً!
كَيْ تَسيرَ عَلَى الأَرْض، قُلْتُ .
فَقَالُوا: لِمَاذَا كَتَبْتَ القَصِيدَةَ بَيْضَاءَ والأَرْضُ سَوْدَاءُ جِدًّا .
أَجَبْتُ: لأَنَّ ثَلاَثِينَ بَحْراً تَصُبُّ بِقَلْبِي .
فَقَالوا: لِمَاذا تُحِبُّ النَّبيذَ الفَرَنْسِيّ؟
قُلْتُ : لأَنِّي جَدِيرٌ بِأَجْمَل امْرأَة .
كَيْفَ تَطْلُبُ مَوْتَكَ؟
أَزْرَق مِثْل نُجُوم تَسِيلُ مِنَ السَّقْف– هَلْ تَطْلُبُونَ المَزيدَ مِنَ الخَمْر؟
قَالوا: سَنَشْرَبُ .
قُلْتُ: سَأَسْأَلُكُمْ أَنْ تَكُونُوا بَطِيئِين، أَنْ تَقْتُلُوني رُوَيْداً رُوَيْداً لأَكْتُبَ شِعْراً ...

(من ديوان „ورد أقل“ ١٩٨٦)

ألمـــــي خبز

موتنا عن
دولة . . . . . أم خيمة ؟
قلت : انتظر ! لا فرق بين الرايتين
قلت : انتظر حتى تصب الطائرات جحيمها !
بيروت . . . ... ظهراً
يستمر الفجرُ منذ الفجر
تنكسر السماء على رغيف الخبز
ينكسر الهواءُ على روؤس الناسِ من عبء الدخان
ولا جديد لدى العروبة!
بعد شهر يلتقي كلُّ الملوك بكل أنواع الملوك
من العقيد إلى الشهيد، ليبحثوا خطر اليهود على وجود الله
أما الآن فالأحوال هادئة تماماً مثلما كانت
والموت يأتينا بكل سلاحه الجوي والبري والبحري
مليون انفجار في المدينة
هيروشيما هيروشيما
وحدنا نصغي إلى رعد الحجارة
وحدنا نصغي لما في الروح من عبثٍ ومن جدوى
وأمريكا على الأسوار تهدي كل طفلٍ لعبة للموت عنقودية
يا هيروشيما العاشق العربي
أمريكا هي الطاعون، والطاعون أمريكا
نعسنا. أيقظتنا الطائرات وصوت أمريكا
وأمريكا لأمريكا
وهذا الأفق اسمنتٌ لوحش الجو
نفتحُ علبةَ السردين، تقصفها المدافعُ
نحتمي بستارة الشباك، تهتز البناية
تقفز الأبواب
أمريكا وراء الباب
أمريكا

بيروت . . . . . ليلاً
يخرج الشهداء من أشجارهم، يتفقدون صغارهم
يتجولون على السواحل، يرصدون الحلم والرؤيا
يغطون السماء بفائض الألوان، يفترشون موقعهم
يسمّون الجزيرة، يغسلون الماء، ثم يطرزون حصارنا
قططاً . . . . ونخلا
وحدنا، والله فينا وحدنا
الله فينا قد تجلى!
. . . .أمسِ – الآنَ – بعدَ غدٍ
نشيدٌ للخَريف
صور لما بعد النهار
وظلال امرأةٍ غريبه
وطني حقيبهً
وحقيبتي وطني
ولكن . . . . لا رصيف ولا جدار
لا أرض تحتي كي أموت كما أشاء
ولا سماء حولي لأثقبها وأدخل في خيام الأنبياء
ظهري إلى الحائط
الحائط / الساقط!
وطني حقيبه
وحقيبتي وطن الغجر
شعبٌ يخيّمُ في الأغاني والدخان
شعبٌ يفتشُ عن مكان
بين الشظايا والمطر
وجهي على الزهرة
الزهرة / الجمرة
وطني حقيبه
في الليل أفرشها سريراً
وأنام فيها
أخدع الفتيات فيها
أدفن الأحباب فيها
أرتضيها لي مصيراً
وأموت فيها
كفنّي على النجمة
النجمة / الخيمه
وطني حقيبه
من جلد أحبابي
وأندلس القريبه
وطني على كتفي
بقايا الأرض في جسد العروبه

تنكسر السماء على رغيف الخبز
ينكسر الهواءُ على رؤوس الناسِ من عبء الدخان

شتاء ريتا الطويل

ريتا ترتب ليل غرفتنا: قليل هذا النبيذ
وهذه الأزهار أكبر من سريري
فافتح لها الشباك كي يتعطر الليل الجميل
ضع همُنا قمراً على الكرسيَّ
ضع فوق البحيرةَ
حول منديلي ليرتفع النخيل أعلى وأعلى
هل لبست سواي ؟ هل سكنتك إمرأةٌ
لتجهش كلما التفتِ على جذعي فُروعُكَ ؟
حُكِّ لي قدمي وحُكَّ دَمي لنعرف ما
تخلفه العواصفُ والسُّيولُ
منِّي ومنك ...

تنامُ ريتا في حديقة جسمها
توتُ السياجِ على أظافرها يُضيءُ
الملحَ في جسَدي. أُحبُّك .
نام عصفوران تحت يدَيَّ...
نامت موجةُ القمح النبيل على تنفسها البطيء
ووردةُ حمراء نامت في الممر
ونام ليلٌ لا يطول
والبحر نام أمام نافذتي على إيقاع ريتا
يعلو ويهبط في أشعة صدرها العاري
فنامي بيني وبينك
لا تغطي عَتمَةَ الذهب العميقة بيننا
نامي يداً حول الصدى
ويداً تبعثرُ عزلة الغابات
نامي بين القميص الفستقي ومقعد الليمون
نامي فرساً على رايات ليلة عرسها ...
هدأ الصهيلُ
هدأت خلايا النحل في دمنا
فهل كانت هنا ريتا
وهل كنا معا ؟

ريتا سترحلُ بعد ساعات وتتركُ ظلها
زنزانةٌ بيضاء . أين سنلتَقي ؟
سألَت يديها، فالتَفَتْ إلى البعيد
البحر خلف الباب، والصحراء خلف البحر
قبلني على شفتي قالت .
قُلت: يا ريتا أأرحلُ من جديد
مادام لي عنبٌ وذاكرةٌ ، وتتركني الفصول
بين الإشارة والعبارة هاجساً؟
ماذا تقول ؟
لا شيء يا ريتا ، أقلدُ فارساً في أُغنية
عن لعنة الحب المحاصر بالمرايا ...
عَنّي؟
وعن حلمين فوق وسادة يتقاطعان ويهربان
فواحدٌ يستل سكيناً وآخَرُ يُودعُ الناي الوصايا
لا أدرك المعنى، تقول
و لا أنا، لغتي شظايا
كغياب إمرأة عن المعنى،
وتنتحرُ الخيولُ في آخر الميدان ...

ريتا تحتسي شاي الصباح
وتقشر التفاحة الأولى بعشر زنابقٍ
وتقول لي :
لا تقرأ الآن الجريدة، فالطبول هي الطبول
والحرب ليست مهنتي. وأنا أنا. هل أنتَ أنتْ ؟
أنا هو
هو من رآكِ غزالةً ترمي لآلئها عليه
هو من رأى شهواته تجري وراءك كالغدير
هو من رآنا تائهين توحدا فوق السرير
وتباعدا كتحية الغرباء في الميناء
يأخذنا الرحيل في ريحه ورقاً
أمام فنادق الغرباء
مثل رسائل قرئت على عجل
أتأخُذني معَك؟
فأكون خاتم قلبك الحافي، أتأخُذني معك
فأكون ثوبك في بلاد أنجبتك ... لتصرعك
وأكون تابوتا من النعناع يحمل مصرعك
وتكون لي حياً وميتاً
ضاع يا ريتا الدليل
والحب مثل الموت وعدٌ لا يرد .. ولا يزولُ

ريتا تُعدُّ لي النهار
حجلاً تجمع حول كعب حذائها العالي :
صباحُ الخيرِ يا ريتا
وغيماً أزرقاً للياسمينة تحت إبطيها :
صباحُ الخير يا ريتا
وفاكهةً لضوء الفجر: يا ريتا صباح الخير
يا ريتا أعيديني إلى جسدي لتهدأ لحظةً
إبرُ الصنوبر في دمي المهجور بعدك .
كلما عانقتُ برجَ العاج فرت من يدَيَّ يمامتان ..
قالت: سأرجع عندما تتبدل الأيام والأحلام
يا ريتا طويل هذا الشتاء ، ونحن نحن
فلا تقولي ما أقول أنا هي
هيَ من رأتكَ معلقاً فوق السياج ، فأنزلتك وضمدتك
وبدمعها غسلتك، انتشرت بسوسنها عليك
ومررت بين سيوف اخوتها ولعنة أمها وأنا هيَ
هل أنتَ أنتْ؟

تقوم ريتا عن ركبتي
تزور زينتها، وتربط شعرها بفراشةٍ فضيةٍ .
ذيل الحصان يُداعبُ النمش المبعثر
كرذاذ ضوءٍ فوق الرخام الأنثوي
تعيد ريتا زرَ القميص إلى القميص الخردلي ... أأنتَ لي ؟
لكَ ، لو تركت الباب مفتوحاً على ماضيَّ ،
ليَ ماضٍ أراه الآن يولدُ في غيابك
من صرير الوقت في مفتاح هذا الباب
لي ماض أراه الآن يجلس قربنا كالطاولة
لي رغوة الصابون
والعسل المملح
والندى
والزنجبيل
ولكَ الأيائل ،إن أردت، لك الأيائل والسهول
ولك الأغاني، إن أردت، لك الأغاني والذهول
إني ولدت لكي أحبك
فرساً تُرقِّصُ غابةً، وتشق في المرجان غيابك
ووُلدتُ سيدةً لسيدها، فخذني كي أصبك
خمراً نهائياً لأشفي منك فيك، وهات قلبك
إني ولدت لكي أحبك
وتركت أمي في المزامير القديمة تلعن الدنيا وشعبك
ووجدت حراس المدينة يُطعمون النار حُبك
وإني ولدت لكي أحبك
ريتا تكسر جوز أيامي، فتتسع الحقول
لي هذه الأرض الصغيرة في غرفة في شارعٍ
في الطابق الأرضي من مبنى على جبل
يطل على هواء البحر. لي قمرٌ نبيذيٌّ ولي حجر صقيل
لي حصة من مشهد الموج المسافر في الغيوم ، وحصة
من سفر تكوين البداية وسفر أيوب ، ومن عيد الحصاد
وحصةَ مما ملكتُ، وحصةَ مَن خبز أمي
لي حصة من سوسن الوديان في أشعار عشاق قدامى
لي حصة من حكمة العشاق: يعشقُ وجهَ قاتلهِ القتيلُ
لو تعبرين النهر يا ريتا
وأين النهر، قالت ...
قُلتُ فيكِ وفيَّ نهرٌ واحد
وأنا أسيل دماً وذاكرةً أسيلُ
لم يترك الحراس لي باباً لأدخل فاتكأت على الأفق
ونظرت تحت
نظرت فوق
نظرت حول
فلم أجد
أفقاً لأنظر، لم أجد في الضوء إلا نظرتي
ترتد نحوي. قلت عودي مرةً أخرى إلي، فقد أرى
أحداً يحاول أن يرى أفقاً يرممه رسول
برسالة من لفظتين صغيرتين: أنا، وأنت
فرحٌ صغيرٌ في سرير ضيق ... فرحٌ ضَئيل
لم يقتلونا بعد، يا ريتاً، ويا رَيتا.. ثقيل
هذا الشتاء وبارد

ريتا تغني وحدها
لبريد غربتها الشمالي البعيد: تركتُ أمي وحدها
قرب البحيرة وحدها ، تبكي طفولتي البعيدة بعدها
في كل أمسية تنام ضفيرتي الصغيرة عندها
أمي، كسرت طفولتي وخرجت إمرأةً تُربِّي نهدها
بفم الحبيب. تدور ريتا حول ريتا وحدها :
لا أرض للجسدين في جسد، ولا منفى لمنفى
في هذه الغرف الصغيرة، والخروج هو الدخول
عبثا نغني بين هاويتين، فلنرحل ليتضح السبيل
لا أستطيع، ولا أنا، كانت تقول ولا تقول
وتهدئ الأفراس في دمها: أمن أرض بعيدة
تأتي السنونو، يا غريب ويا حبيب، إلى حديقتك الوحيدة؟
خذني إلى أرضي البعيدة
خذني إلى الأرض البعيدة، أجهشت ريتا: طويل هذا الشتاء
وكسرت خزف النهار على حديد النافذة
وضعت مسدسها الصغير على مسودة القصيدة
ورمت جواربها على الكرسي فانكسر الهديل
ومضت إلى المجهول حافيةً ، وأدركني الرحيل

تقوم ريتا عن ركبتي
تزور زينتها، وتربط شعرها بفراشةٍ فضيةٍ .

أَبَدُ الصَّبَّار

إلى اين تأخُذُني يا أَبي ؟
إلى جِهَةِ الريحِ يا وَلَدي . . .

... وَهُما يَخْرجانِ منَ السَهْل ، حَيْثُ
أَقام جنودُ بونابرتَ تلاًّ لرَصْد
الظلال على سور عَكَّا القَديم –
يقولُ أَبٌ لابنه : لا تَخَفْ . لا
تخف من أَزيزَ الرصاص ! التصقْ
بالتراب لتنجو ! سننجو ونعلو على
جَبَل في الشمال ، ونرجعُ حين
يعودُ الجنودُ إلى أهلهم في البعيد .

ومن يسكُنُ البَيْتَ من بعدنا
يا أَبي ؟
سيبقى على حاله مثلما كان
يا ولدي!

تَحَسَّسَ مفتاحَهُ مثلما يتحسَّسُ
أَعضاءه ، واطمأنَّ . و قال لَهُ
وهما يعبران سياجاً من الشوك :
يا ابني تذكَّرْ! هنا صَلَبَ الانجليزُ
أَباك على شَوْك صُبَّارة ليلتين ،
ولم يعترف أبداً. سوف تكبر يا
ابني ، وتروي لمن يرثون بنادقهم
سيرة الدم فوق الحديد ....

– لماذا تركتَ الحصان و حيداً ؟
– لكي يُؤنسَ البيتَ ، يا ولدي ،
فالبيوتُ تموت إذا غاب سُكَّانُها ...

تفتحُ الأبديَّةُ أَبوابها ، من بعيد ،
لسيَّارة الليل . تعوي ذئابُ
البراري على قَمَر خائف . و يقولُ
أَبٍ لابنه : كُنْ قوياً كجدِّك!
وأَصعَدْ معي تلَّة السنديان الأخيرةَ
يا ابني ، تذكَّرْ : هنا وقع الانكشاريُّ
عن بَغْلَةِ الحرب ، فاصمُدْ معي
لنعودْ .

– متى يا أَبي ؟
– غداً . ربما بعد يومين يا ابني!

وكان غَدُ طائشُ يمضغ الريح
خلفهما في ليالي الشتاء الطويلةْ .
وكان جنودُ يُهُوشُعَ بن نونَ يبنون
قَلْعَتَهُمْ من حجارة بيتهما . وهما
يلهثان على درب (قانا) : هنا
مرَّ سيِّدُنا ذاتَ يوم . هنا
جَعَلَ الماءَ خمراً. وقّال كلاماً
كثيراً عن الحبَ ، يا ابني تذكّر
غداً . وتذكّرْ قلاعاً صليبيَّةً
قَضَمَتْها حشائش نيسان بعد
رحيل الجنود ....

تَجْرحُني غيمةٌ في يدي : لا
أُريدُ من الأرض أكثرَ منْ
هذه الأرض: رائحة الهالِ والقَشِّ
بين أَبي والحصانْ .
في يدي غيمةٌ جَرَحْتني . ولكنني
لا أُريدُ من الشمس أكثرَ
من حَبَّة البرتقال وأكثرَ منْ
ذَهَبٍ سال من كلمات الأذانْ

أَسْرَجُوا الخَيْلَ ،
لا يعرفون لماذا ،
ولكنهُمْ أسرجوا الخيل
في آخر الليل، وانتظروا
شَبَحاً طالعاً من شُقوق المكانْ ....

(من ديوان „لماذا تركتَ الحصانَ وحيدًا“، ١٩٩٥)

دروس من كاما سوطرا

بكأس الشراب المرصَّع باللازوردِ
انتظرْها ،
على بركة الماء حول المساء وزَهْر الكُولُونيا انتظرْها
،
بذَوْق الأمير الرفيع البديع
انتظرْها ،
بسبعِ وسائدَ مَحْشُوَّةٍ بالسحابِ الخفيفِ
انتظْرها ،
بنارِ البَخُور النسائِّي ملءَ المكانِ
انتظْرها ،
برائحة الصَّنْدَلِ الذَّكَرِيَّةِ حول ظُهُور الخيولِ
انتظْرها ،
ولا تتعجَّلْ ، فإن أقبلَتْ بعد موعدها
فانتظْرها ،
وإن أقبلتْ قبل موعدها
فانتظْرها ،
ولا تُجفِل الطيرَ فوق جدائلها
وانتظْرها ،
لتجلس مرتاحةً كالحديقة في أَوْجِ زِينَتِها
وأَنتظْرها ،
لكي تتنفَّسَ هذا الهواء الغريبَ على قلبها
وانتظْرها ،
لترفع عن ساقها ثَوْبَها غيمةٌ غيمةٌ
وانتظْرها ،
وخُذْها إلى شرفة لترى قمراً غارقاً في الحليبِ
انتظْرها ،
وقَدِّمْ لها الماءَ ، قبل النبيذ ، ولا
تتطَّلعْ إلى تَوْأَمْي حَجَلٍ نائمَيْن على صدرها
وانتظْرها ،
ومُسَّ على مَهَل يَدَها عندما
تَضَعُ الكأسَ فوق الرخام
كأنَّكَ تحملُ عنها الندى
وانتظْرها ،
تحَّدثْ إليها كما يتحدَّثُ نايٌ
إلى وَتَر خائف في الكمان
كأنكما شاهدانِ على ما يُعِدُّ غَدٌ لكما
وانتظْرها ،
ولَمِّع لها لَيْلَها خاتماً خاتماً
وانتظْرها ،
إلى أَن يقولَ لَكَ الليلُ :
لم يَبْقَ غيرُكُما في الوجود
فخُذْها ، برفْق ، إلى موتكَ المُشْتَهَى
وانتظْرها ! ...

(من ديوان "سرير الغريبة" ١٩٩٩)

جدارية

(مقاطع)

خضراءُ ، أَرضُ قصيدتي خضراءُ عاليةٌ . . .
تُطِلُّ عليَّ من بطحاء هاويتي . . .
غريبٌ أَنتَ في معناك . يكفي أن
تكونَ هناك ، وحدك ، كي تصيرَ
قبيلةً . . .
غَنَّيْتُ كي أَزنَ المدى المهدُورَ
في وَجَع الحَمامة ،
لا لأَشْرَحَ ما يقولُ اللهُ للإنسان ،
لَسْتُ أَنا النبيَّ لأَدَّعي وَحْياً
وأُعْلِنَ أَنَّ هاويتي صُعُودُ

وأَنا الغريب بكُلِّ ما أُوتيتُ من
لُغَتي . ولو أخضعتُ عاطفتي بحرف
الضاد ، تخضعني بحرف الياء عاطفتي ،
وللكلمات وَهيَ بعيدةٌ أَرضٌ تُجاورُ
كوكباً أَعلى . وللكلمات وَهيَ قريبةٌ
منفى . ولا يكفي الكتابُ لكي أقول :
وجدتُ نفسي حاضراً مِلءَ الغياب .
وكُلَّما فَتَّشْتُ عن نفسي وجدتُ
الآخرين . وكُلَّما فتَّشْتُ عَنْهُمْ لم
أَجد فيهم سوى نَفسي الغريبةِ ،
هل أَنا الفَرْدُ الحشُودُ ؟

وأَنا الغريبُ . تَعِبْتُ من " درب الحليب "
إلى الحبيب . تعبتُ من صِفَتي .
يَضيقُ الشَّكْلُ . يَتّسعُ الكَلامُ . أَفيضُ
عن حاجات مفردتي . وأَنْظُرُ نحو
نفسي في المرايا :
هل أَنا هُوَ ؟
هل أُؤَدِّي جَيِّداً دَوْرِي من الفصل
الأخير ؟
وهل قَرأتُ المسرحيَّةَ قبل هذا العرض ،
أَم فُرِضَتْ عليَّ ؟
وهل أَنا هُوَ من يؤدِّي الدَّوْرَ
أَمْ أَنَّ الضحيَّة غَيَّرتْ أَقوالها
لتعيش ما بعد الحداثة ، بعدما
انْحَرَفَ المؤلِّفُ عن سياق النصِّ
وانصرَفَ المُمَثِّلُ والشهودُ ؟

وجلستُ خلف الباب أَنظُرُ :
هل أَنا هُوَ ؟
هذه لُغَتي . وهذا الصوت وَخْزُ دمي
ولكن المؤلف آخَرٌ . . .
أَنا لستُ مني إن أَتيتُ ولم أَصِلْ
أَنا لستُ مني إن نَطَقْتُ ولم أَقُلْ
أَنا مَنْ تَقُولُ له الحُروفُ الغامضاتُ :
اكتُبْ تَكُنْ !
واقرأْ تَجِدْ !
وإذا أَردْتَ القَوْلَ فافعلْ ، يَتَّحِدْ
ضدَّاكَ في المعنى . . .
وباطِنُكَ الشفيفُ هُوَ القصيدُ

بَحَّارَةٌ حولي ، ولا ميناء
أفرغني الهباءُ من الإشارة والعبارة ،
لم أَجد وقتاً لأعرف أين مَنْزِلتي ،
الهُنَيْهةَ ، بين مَنْزِلَتَيْنِ . لم أَسأل
سؤالي ، بعد ، عَن غَبَش التشابُه
بين بابَيْنِ : الخروج أم الدخول . . .
ولم أَجِدْ موتاً لأَقْتَنِصَ الحياةَ .
ولم أَجِدْ صوتاً لأَصرخَ : أَيُّها
الزَمَنُ السريعُ ! خَطَفْتَني مما تقولُ
لي الحروفُ الغامضاتُ :
ألواقعيُّ هو الخياليُّ الأَكيدُ

يا أيها الزَمَنُ الذي لم ينتظرْ . . .
لم يَنْتَظِرْ أحداً تأَخَّر عن وِلادته ،
دَعِ الماضي جديداً ، فَهْوَ ذكراكَ
الوَحيدةُ بيننا ، أيَّامَ كنا أَصدقاءك ،
لا ضحايا مركباتك . واترُكِ الماضي
كما هُوَ ، لا يُقَادُ ولا يَقُودُ

ورأيتُ ما يتذكَّرُ الموتى وما ينسون . . .
هُمْ لا يكبرون ويقرأون الوَقْتَ في
ساعات أيديهمْ . وَهُمْ لايشعرون
بموتنا أَبداً ولا بحياتهمْ . لا شيءَ
مِمَّا كُنْتُ أو سأكونُ . تَنحلُّ الضمائرُ
كُلُّها . " هو " في " أنا " في " أَنت " .
لا كُلٌّ ولاجُزْءٌ . ولا حيٌّ يقول
لميِّت : كُنِّي !

.. وتنحلُّ العناصرُ والمشاعرُ . لا
أَرى جَسَدي هُنَاكَ ، ولا أُحسُّ
بعنفوان الموت ، أَو بحياتيَ الأُولى .
كأَنِّي لَسْتُ منّي . مَنْ أنا ؟ أَأَنا
الفقيدُ أَم الوليدُ ؟

الوقْتُ صِفْرٌ . لم أُفكِّر بالولادة
حين طارَ الموتُ بي نحو السديم ،
فلم أَكُن حَيّاً ولا مَيْتاً ،
ولا عَدَمٌ هناك ، ولا وُجُودُ

تقولُ مُمَرِّضتي : أَنتَ أَحسَنُ حالاً .
وتحقُنُني بالمُخَدِّر : كُنْ هادئاً
وجديراً بما سوف تحلُمُ
عما قليل . . .

رأيتُ طبيبي الفرنسيَّ
يفتح زنزانتي
ويضربني بالعصا
يُعَاونُهُ اثنانِ من شُرْطة الضاحيه

رأيتُ أَبي عائداً
من الحجِّ ، مُغمىً عليه
مُصَاباً بضربة شمس حجازيّة
يقول لرفٍّ ملائكةٍ حَوْلَهُ :
أطفئوني ! . . .

رأيتُ شباباً مغاربةً
يلعبون الكُرَةْ
ويرمونني بالحجارة : عُدْ بالعبارةِ
واترُكْ لنا أُمَّنا
يا أَبانا الذي أخطَأَ المقبره !

رأيت " ريني شار "
يجلس مع " هيدغر "
على بُعْد مترين منِّي ،
رأيتهما يشربان النبيذَ
ولا يبحثان عن الشعر . . .
كان الحوار شُعَاعاً
وكان غدٌ عابرٌ ينتظرْ

رأيتُ رفاقي الثلاثَةَ ينتحبونَ
وَهُمْ
يَخيطونَ لي كَفَناً
بخُيوطِ الذَّهَبْ

رأيت المعريَّ يطرد نُقَّادَهُ
من قصيدته :
لستُ أَعمى
لأُبْصِرَ ما تبصرونْ ،
فإنَّ البصيرةَ نورٌ يؤدِّي
إلى عَدَمٍ . . . أو جُنُونْ

رأيتُ بلاداً تعانقُني
بأيدٍ صَبَاحيّة : كُنْ
جديراً برائحة الخبز . كُنْ
لائقاً بزهور الرصيفْ
فما زال تَنُّورُ أُمِّكَ
مشتعلاً ،
والتحيَّةُ ساخنةً كالرغيفْ !

خضراءُ ، أَرضُ قصيدتي خضراءُ . نهرٌ واحدٌ يكفي
لأهمس للفراشة : آه ، يا أُختي ، ونَهْرٌ واحدٌ يكفي لإغواء
الأساطير القديمة بالبقاء على جناح الصَّقْر ، وَهْوَ يُبَدِّلُ
الرايات والقممَ البعيدةَ ، حيث أنشأت الجيوشُ ممالك
النسيان لي . لاشَعْبَ أَصْغَرُ من قصيدته . ولكنَّ السلاحَ
يُوَسِّعُ الكلمات للموتى وللأحياء فيها ، والحُروفَ تُلَمِّعُ
السيفَ المُعَلَّقَ في حزام الفجر ، والصحراء تنقُصُ
بالأغاني ، أَو تزيدُ

لاعُمْرَ يكفي كي أَشُدَّ نهايتي لبدايتي
أَخَذَ الرُّعَاةُ حكايتي وتَوَغَّلُوا في العشبِ فوق مفاتن
الأنقاض ، وانتصروا على النسيان بالأبواق والسَّجَع
المشاع ، وأَورثوني بُحَّةَ الذكرى على حَجَرِ الوداع ، ولم
يعودوا . . .

رَعَويَّةٌ أَيَّامنا رَعَويَّةٌ بين القبيلة والمدينة ، لم أَجد لَيْلاً
خُصُوصيّاً لهودجك المُكَلَّل بالسراب ، وقلت لي :
ما حاجتي لاسمي بدونكَ ؟ نادني ، فأنا خلَقْتُك
عندما سَمَّيْتَني ، وقتلتَني حين امتلكتَ الاسمَ . . .
كيف قتلتَني ؟ وأَنا غريبةُ كُلِّ هذا الليل ، أَدْخِلْني

وأَنا الغريبُ . تَعِبْتُ من " درب الحليب "
إلى الحبيب . تعبتُ من صِفَتي .

إلى غابات شهوتك ، احتضنّي واعْتَصِرْني ،
واسفُك العَسَلَ الزفافيَّ النقيَّ على قفير النحل .
بعثرني بما ملكتْ يداك من الرياح ولُمَّني .
فالليل يُسْلِمُ روحَهُ لك يا غريبُ ، ولن تراني نجمةٌ
إلاّ وتعرف أنَّ عائلتي ستقتلني بماء اللازورد ،
فهاتني ليكونَ لي – وأنا أُحطِّمُ جَرَّتي بيديَّ –
حاضِريَ السعيدْ

.. ويا مَوْتُ انتظرْ ، ياموتُ ،
حتى أستعيدَ صفاءَ ذِهْني في الربيع
وصحّتي ، لتكون صيَّاداً شريفاً لا
يَصيدُ الظَّبْيَ قرب النبع . فلتكن العلاقةُ
بيننا وُدّيَّةً وصريحةً : لكَ أنتَ
مالَكَ من حياتي حين أملأُها ..
ولي منك التأمُّلُ في الكواكب :
لم يَمُتْ أَحَدٌ تماماً ، تلك أرواحٌ
تغيِّر شَكْلَها ومُقامَها /
يا موت ! ياظلّي الذي
سيقودُني ، يا ثالثَ الاثنين ، يا
لَوْنَ التردُّد في الزُمُرُّد والزَّبَرْجَد ،
يا دَمَ الطاووس ، يا قَنَّاصَ قلب
الذئب ، يا مَرَض الخيال ! اجلسْ
على الكرسيّ ! ضَعْ أدوات صيدك
تحت نافذتي . وعلِّقْ فوق باب البيت
سلسلةَ المفاتيح الثقيلة ! لا تُحَدِّقْ
يا قويُّ إلى شراييني لترصُدَ نُقْطَةَ
الضعف الأخيرة . أنتَ أقوى من
نظام الطبّ . أقوى من جهاز
تَنَفُّسي . أقوى من العَسَل القويّ ،
ولَسْتَ محتاجاً – لتقتلنيَ – إلى مَرَضي .
فكُنْ أَسْمَى من الحشرات . كُنْ مَنْ
أنتَ ، شفّافاً بريداً واضحاً للغيب .
كن كالحُبِّ عاصفةً على شجر ، ولا
تجلس على العتبات كالشحّاذ أو جابي
الضرائب . لا تكن شُرطيّ سَيْرٍ في
الشوارعَ . كن قويّاً ، ناصعَ الفولاذ ، واخلَعْ عنك أقنعةَ
الثعالب . كُنْ
فروسياً ، بهياً ، كامل الضربات . قُلْ
ماشئْتَ : ((من معنى إلي معنى
أجيءُ . هيَ الحياةُ سُيُولةٌ ، وأنا
أكثفُها ، أُعرِّفُها بسُلْطاني وميزاني)) .. /
ويامَوْتُ انتظرْ ، واجلس على
الكرسيّ . خُذْ كأسَ النبيذ ، ولا
تفاوضْني ، فمثلُكَ لا يُفاوضُ أيَّ
إنسان ، ومثلي لا يعارضُ خادمَ
الغيبِ . استرح . . . فلَرُبَّما أُنْهكْتَ هذا
اليومَ من حرب النجوم . فمنَ أنا
لتزورني ؟ ألَدَيْكَ وَقْتٌ لاختبار
قصيدتي . لا . ليس هذا الشأنُ
شأنَكَ . أنت مسؤولٌ عن الطينيِّ في
البشريِّ ، لا عن فعْله أو قَوْله /
هَزَمَتْكَ يا موتُ الفنونُ جميعُها .
هزمتك يا موتُ الأغاني في بلاد
الرافدين . مسَلَّةُ المصريّ ، مقبرةُ الفراعنة ،
النقوشُ على حجارة معبد هَزَمَتْكَ
وانتصرتْ ، وأفْلَتَ من كمائنك
الخُلُودُ . . .
فاصنع بنا ، واصنع بنفسك ما تريدُ

كانت ساعَةُ الميناء تعمَلُ وحدها
لم يكترثْ أَحَدٌ بليلَ الوقت ، صَيَّادو
ثمار البحر يرمون الشباك ويجدلون
الموجَ . والعُشَّاقُ في الـ" ديسكو " .
وكان الحالمون يُرَبِّتُون القُبَّراتِ النائماتِ
ويحلمون . . .
وقلتُ : إن متُّ انتبهتُ . . .
لديَّ ما يكفي من الماضي
وينقُصُني غَدٌ . . .
سأسيرُ في الدرب القديم على
خُطَايَ ، على هواء البحر . لا
امرأةٌ تراني تحت شرفتها . ولم
أملكْ من الذكرى سوى ما ينفَعُ
السَّفَرَ الطويلَ . وكان في الأيام
ما يكفي من الغد . كُنْتُ أَصْغَرَ
من فراشاتي ومن غَمَّازتين :
خُذي النُّعَاسَ وخبِّئيني فيَ
الرواية والمساء العاطفيّ /
وَخبِّئيني تحت إحدى النخلتين /
وعلِّميني الشعْرَ / قد أتعلَّمُ
التجوال في أنحاء " هومير " / قد
أُضيفُ إلى الحكاية وَصْفَ
عكا / أقدم المدن الجميلة ،
أجمل المدنَ القديمة / علبَةٌ
حَجَرِيَّةٌ يتحرَّكُ الأحياءُ والأمواتُ
في صلصالها كخليَّة النحل السجين
ويُضْرِبُونَ عن الزهور ويسألون
البحرَ عن باب الطوارئ كُلَّما
اشتدَّ الحصارُ / وعلِّميني الشعْرَ /
قد تحتاجُ بنتٌ ما إلى أُغنية
لبعيدها : ((خُذْني ولو قَسْراً
إليكَ ، وضَعْ منامي في
يَدَيْكَ)) . ويذهبان إلى الصدى
مُتَعانقَيْن / كأنَّني زوَّجتُ ظبياً
شارداً لغَزالة / وفتحتُ أبوابَ
الكنيسة للحمام . . . / وعلِّميني
الشعْرَ / مَنْ غزلتْ قميصَ
الصوف وانتظرتْ أمام الباب
أَوْلَى بالحديث عن المدى ، وبخَيْبَةِ
الأمَل : المُحاربُ لم يَعُدْ ، أو
لن يعود ، فلستَ أنتَ مَن
انتظرتُ . . . /

مقهىً، وأنت مع الجريدة

مقهىً، وأنت مع الجريدة جالسٌ
لا، لستَ وحدك. نصفُ كأسكَ فارغٌ
والشمسُ تملأ نصفها الثاني . . .

ومن خلف الزجاج ترى المشاة المسرعين
ولا تُرى [إحدى صفات الغيب تلك :
ترى ولكن لا تُرى]
كم أنت حرٌّ أيها المنسيُّ في المقهى!
فلا أحدٌ يرى أثر الكمنجة فيك،
لا أحدٌ يحملقُ في حضورك أو غيابكَ،
أو يدقِّق في ضبابك إن نظرتَ
إلى فتاة وانكسرت أمامها..
كم أنت حرٌّ في إدارة شأنك الشخصيِّ
في هذا الزحام بلا رقيبٍ منكَ أو
من قارئ!
فاصنع بنفسكَ ما تشاء، إخلعْ
قميصك أو حذاءك إن أردتَ، فأنت
منسيٌّ وحرٌّ في خيالك، ليس لاسمكَ
أو لوجهكَ ههنا عملٌ ضروريٌّ. تكون
كما تكون . . . فلا صديقَ ولا عدوَّ
يراقب هنا ذكرياتكَ /
فالتمسْ عذراً لمن تركتك في المقهى
لأنك لم تلاحظ قَصَّة الشَّعر الجديدةَ
والفراشاتِ التي رقصت على غمَّازتيها /
والتمس عذراً لمن طلب اغتيالكَ،
ذات يوم، لا لشيءٍ. . . بل لأنك لم
تمتْ يومَ ارتطمتَ بنجمة.. وكتبتَ
أولى الأغنيات بحبرها. . .

مقهىً، وأنت مع الجريدة جالسٌ
في الركن منسيّاً، فلا أحد يهين
مزاجكَ الصافي،
ولا أحدٌ يفكرُ باغتيالكْ
كم انت منسيٌّ وحُرٌّ في خيالك!

.. ويا مَوْتُ انتظرْ ، ياموتُ ،
حتى أستعيدَ صفاءَ ذِهْني في الربيع

لم تأتِ

لم تأتِ. قلتُ: ولنْ .. إذاً
سأعيد ترتيب المساء بما يليق بخيبتي
وغيابها:
أطفات نار شموعها،
أشعلت نور الكهرباء،
شربتُ كأس نبيذها وكسرتهُ،
أبدلتُ موسيقى الكمنجات السريعة
بالأغاني الفارسية.
قلت: لن تأتي. سأنضو ربطةَ
العنق الأنيقة [هكذا أرتاح أكثر]
أرتدي بيجامة زرقاء. أمشي حافياً
لو شئتُ. أجلس بارتخاء القرفصاءِ
على أريكتها، فأنساها
وأنسى كل أشياء الغياب /
أعدتُ ما أعددتُ من أدوات حفلتنا
إلى أدراجها. وفتحتُ كلَّ نوافذي وستائري.
لاسرَّ في جسدي أمام الليل إلاّ
ما انتظرتُ وما خسرتُ. . .
سخرتُ من هَوَسي بتنظيف الهواء لأجلها
[عطرته برذاذ ماء الورد والليمون]
لن تأتي . . . سأنقل نبتة الأوركيدِ
من جهة اليمين إلى اليسار لكي أعاقبها
على نسيانها. . .
غطيتُ مرآةَ الجدار بمعطفٍ كي لا أرى
إشعاع صورتها . . . فأندم /
قلتُ: أنسى ما اقتبستُ لها
من الغزل القديم، لأنها لا تستحقُّ
قصيدةً حتى لو مسروقةً. . .
ونسيتُها، وأكلتُ وجبتي السريعةَ واقفاً
وقرأتُ فصلاً من كتاب مدرسيّ
عن كواكبنا البعيدةْ
وكتبتُ، كي أنسى إساءتها، قصيدة
هذي القصيدةْ!

ولنا بلاد

ولنا بلادٌ لا حُدُودَ لها، كفكرتنا عن
المجهول، ضيّقةً وواسعةٌ. بلادٌ...
حين نمشي في خريطتها تضيقُ بنا،
وتأخذنا إلى نَفَقٍ رماديّ، فنصرخ
في متاهتها: وماً زلنا نحبُّك. حُبُّنا
مرضٌ وراثيٌ. بلادٌ... حين
تنبذُنا إلى المجهول... تكبرُ. يكبرُ
الصفصافُ والأوصافُ. يكبرُ عُشبُها
وجبالُها الزرقاءُ. تَتّسعُ البحيرةُ في
شمالِ الروح. ترتفعُ السنابلُ في جنوب
الروح. تلمعُ حبّةُ الليمون قنديلاً
على ليل المهاجر. تسطعُ الجغرافيا
كُتُبًا مُقدَّسةً. وَسلسلةُ التلال
تصيرُ معراجًا، إلى الأعلى... إلى الأعلى.
"لو آنّيَ طائرٌ لحرقتُ أجنحتي" يقول
لنفسه المنفيُّ. رائحةُ الخريف تصيرُ
صورةَ ما أحبُّ... تسرَّبَ المطرُ
الخفيفُ إلى جفاف القلب، فانفتح الخيالُ
على مصادره، وصارَ هو المكانَ، هو
الحقيقيَّ الوحيدَ. وكلُّ شيء في
البعيد يعود ريفيّاً بدائيًا كأنَّ الأرضَ
ما زالت تكوِّن نفسها للقاء آدَمَ، نازلاً
للطابق الأرضيِّ من فردوسه. فأقول:
تلك بلادنا حُبلى بنا.. فمتى وُلِدْنا؟
هل تزوَّج آدمُ امرأتين؟ أم أنَّا
سنولدُ مرةً أخرى
لكي ننسى الخطيئة؟

الحلم، ما هو؟

الحُلمُ، ما هُوَ؟
ما هو اللاشيءُ هذا
عابرُ الزمن،
البهيُّ كنجمةٍ في أوّل الحبِّ،
الشَّهيُّ كصورةِ امرأة
تدلِّكُ نهدها بالشَّمس؟ /
ما هُوَ، لا أكاد أراه حتى
يختفي في الأمس /
لا هُوَ واقعٌ لأعيش وطأته وخفَّتهُ
ولا هُوَ عكسُهُ لأطير حُرّاً
في فضاء الحَدْس /
ما هُوَ، ما هُوَ اللاشيءُ، هذا الهَشُّ
هذا اللانهائيُّ، الضعيفُ، الباطنيُّ
الزائرُ، المتطايرُ، المتناثرُ،
المتجدِّدُ المتعدِّدُ اللاّ شكل؟
ما هُوَ؟ لا يُجَسُّ ولا يُمَسّ /
ولا يَمُدُّ يدًا إلى المُتلهِّفين الحائرينَ
فما هُوَ السريُّ هذا،
الحائرُ، الحَذِرُ، المحيِّرُ
حين انتظرُ الزيارةَ مطمئنَّ النفسِ /
يكسرني ويخرجُ مثل لؤلؤةٍ
تُدحرجُ ضوءها،
ويقول لي: لا تنتظرني
إن أردتَ زيارتي
لا تنتظرني!

لا هُوَ واقعٌ لأعيش وطأته وخفَّتهُ
ولا هُوَ عكسُهُ لأطير حُرّاً

درس البديهيات.. العسير

كلما خيل لنا أنّ صورة فلسطين انتقلت من مكانتها المقدسة إلى سياق العادي، فاجأتنا بقدرتها الفذة على إيقاظ معناها الخالد، ببعديه الروحي والزمني من نعاس تاريخي عابر... من دمها يشرق اسمها من جديد، مرجعية وبوصلة.

فلا ماضي للقلب إلا على أسوار القدس.

ولا طريق إلى الغد إلا عبر أزقتها الضيقة.

ولا أفق للسلام، على أرض الفداء والسلام، إلا بإنجاز مشروع الحرية.

سيسهل علينا القول إنّ الروح قد عادت للمرة الألف، إلى جسد لا يدلّ عليه سوى دمه المسفوك، لا لأنّ التاريخ لا يتقن العمل بأدوات طاهرة فقط، بل لأنّ الحرية ذئبة جائعة أيضًا.

وهكذا حين يُضَرّج المُقدّس بالدم، تبدو عودة الروح طقسية واحتفالية، على الرغم من أنها لم تذهب تمامًا، لكن تجليها كان في حاجة إلى تطابق الوعي مع الإرادة.

إنتفاضة جديدة لتعليمنا درس البديهيات العسير، فليست فلسطين جغرافيا فحسب بقدر ما هي أيضا تراجيديا وبطولة. ولا هي فلسطينية فقط، بقدر ما هي إخصاب لفكرة العربي عن نفسه، ومعنى إضافيّ لمعنى وجوده، في صراعه مع خارجه ومع داخله، ليكون جزءًا من تاريخه الخاصّ ومن التاريخ العامّ.

لم تبتعد فلسطين عن حقيقتها، قبل هذا الانفجار، فقد كانت دائمًا ما هي، هناك.

لكنّ الضباب الذي غطى البصر لم يحجب الرؤية عن البصيرة. إذ لم تسفر الانعطافات التجريبية في السياسة، بعد، عما يُبَرّر انكفاء أحد إلى خيمته الإقليمية.

فلن يصل العرب إلى غدهم فُرادى، ولن يصل الفلسطينيون إلى القدس وحدهم وإن كان لدمهم دور الشرارة والقربان.

انتفاضة جديدة لتعليمنا درس البديهيات العسير.

فلم يكفّ الإسرائيليون عن شرح مفهومهم لسلام يريدونه مفروضاً بالقوة، خاليًا من الأرض ومن العدالة، وهو سلام السّادة والعبيد، الذي لا يعدُنا بأكثر من حقّ الإقامة في ضواحي المستوطنات وعلى أطراف الخرافة.

لقد استنفد الفلسطينيون كل رصيدهم في المرونة حول نفسها.

ودفعوا ثمناً أعلى وأغلى مما تستحقه تسوية لا تتجاوز الاعتراف بحقنا في إقامة دولة مستقلة على عشرين بالمائة من ارض وطننا التاريخي، دون أن يبدي الجانب الإسرائيلي أيّ استعداد للانسحاب من متر واحد من مساحة أسطورته عن ذاته وعن التاريخ، التي تعتبر وجودنا التاريخي في بلادنا وجوداً احتلالياً غريباً على „أرض اليهود الأزلية–الأبدية“، الخالية منا ومن التاريخ معًا... لا لشيء إلا لابتكار علاج ما لعقدة شرعية التاريخية.

هذا هو المفهوم الصهيوني للتطبيع ، الذي „انطلى“ حتى على بعض حكومات الأطراف العربية البعيدة التي لم تكن لها ناقة في الصراع، لكنها حَمّلت جملها رسائل حب إلى إسرائيل، باب واشنطن العالي، منذ اتخذ الصراع الإسرائيلي–الفلسطيني أشكالا جديدة، فهبّت إلى إقامة علاقات „متوازنة“ بين إسرائيل وفلسطين، ليكون لها دور الوسيط المحايد في الصراع على القدس بين الحقيقة الفلسطينية وبين الخرافة الإسرائيلية، بين الضحية والجلاد.

ألم تكن فلسطين أكثر من ذريعة... وأكثر من جسر للعبور إلى ضدّها؟

لكنّ الشارع العربي المطرود من السياسة يعود اليوم إلى السياسة من باب المقدس المخضب بالدم، ليعبّر عن تراكم المكبوت، وعن مدى القطيعة من النظام، الذي تمادى في الحياد وفي التطبيع مع دولة لم تفهم من التسوية غير ما يوفر لها القدرة على أن تنجز، في مناخ السلام الكاذب، ما لم تنجزه في مناخ الحرب، من هيمنة إقليمية، ومن راحة استفراد بالشعب الفلسطيني المحاصر.

لا سلام مع الاحتلال، ولا جدول أعمال للتسوية إلا بعد جلاء الاحتلال– هذا ما يقوله الشارع الفلسطيني والعربي الغاضب، بعفوية بليغة وبوعي عميق وبإرادة فولاذية، وبوحدة شعورية وفكرية كاملة لا يستطيع النظام العربي تجاهلها لمتابعة دوره في الوساطة.

فإنّ خيار السلام لم يكن يعني أبدا إخماد روح المقاومة والتخلي عن ثقافة المقاومة، والشروع السريع في تطبيع العلاقة غير الطبيعية مع الاحتلال.

وإلا ، فكيف نقرأ الجنون الحربي الإسرائيلي العام؟

وكيف نقرأ هتافهم: الموت للعرب؟

أما نحن، فلا نملك غير جنون الدفاع عن القدس وعن السلام، إذا كان السلام هو الابن الشرعي للحرية، ولا نملك إلا جنون الدفاع عن اخوة الطفل محمد، الجالس في حضن أبيه، مثل يسوع في قلب أيقونة.

(جريدة „الدستور“ الأردنية، ٢٠٠٢)

ذاكرة للنسيان

واعتدتُ أن أحصي عدد السوس في صحن حساء العدس، الطبق اليومي في السجون– واعتدت أن أتغلّب على الاشمئزاز، لأنّ الشهيّة تتكيّف، ولأنّ الجوع أقوى من الشهية. ولكنني لم أتكيف أبدًا مع غياب القهوة الصباحية ومع تناول غسيل الشاي. ألهذا لم أتعايش مع ظروف السجن. سألتني صديقة بعد خروجي من السجن الأول: هل استمتعت؟ قلت: لا، لأنهم لا يقدمون القهوة. قالت: هذا شيء فظيع. وأضافت: ولكنني لا أشربُ القهوة. قلت: لا أعرف سيدات كثيرات مهووسات بصباح القهوة. الرجل هو الذي يفتتح نهاره بالقهوة، أما المرأة فإنها تُفضّل المكياج!

ليس ذلك ما آلمني، لقد تمكن أحد زملائي السجناء من إحضار فنجان من القهوة لي، ذات صباح، تلقّفتُه بشبق ومنحت نفسي وقتًا للتأمّل، مما دفع زميلاً آخر إلى تصويب نظرة استعطاف نحو الفنجان، تجاهلتُها لأتوحّد مع ملكيتي، تجاهلتُها وتلذذت برشف القهوة بسادية أيقظتْ فيّ إحساسًا بالإثم فيما بعد. كان ذلك قبل عشرين عامًا، وما زالت تلك النظرةُ المتوسلة تلاحقني إلى الآن داعيةً إيّاي إلى إعادة النظر المستمرة في نفسي وإلى تهذيب سلوكي، لأنّ العطاء وتقاسم الأشياء في السجن هو معيار صدق العطاء. لم أتخلّص من عقدة الذنب بما أغدقت هو معيار صدق العطاء. لم أتخلّص من عقدة الذنب بما أغدقتُ عليه من أنصاف السجائر في محاولة لرشوة توازني النفسي. ما أشدَّ أنانيتي! لقد حرمت زميلاً في السجن من نصف فنجان من القهوة، مما دفع الأقدار إلى معاقبتي، بعد أسبوع، يو م جاءت أمي لزيارتي ومعها إبريق من القهوة دلقه الحارسُ على العشب..

والقهوة لا تُشرب على عجل. القهوة أختُ الوقت. تُحتسى على مهل.. على مهل.. القهوة عادة تلازمها بعد السيجارة عادة أخرى هي.. الجريدة.

أين الجريدة؟ الساعة السادسة صباحًا. وأنا في عين الجحيم. ولكن الخبر هو ما يُقرأ لا ما يُسمع. والواقع، قبل تسجيل الواقع، ليس واقعًا تمامًا.

أعرف باحثًا في الشؤون الإسرائيلية لا يكفُ عن تكذيب "الشائعات" القائلة إن بيروت محاصرة، لأنه لا يقرأ الحقيقة إلا إذا كانت مكتوبة باللغة العبرية. وبما أنّ الصحف الإسرائيلية لم تصل إليه، فإنه لا يعترف بأنّ بيروت محاصرة! ليس هذا ما يُصيبني من حماقة، فالجريدة الصباحية ادمان، أين الجريدة؟

تصاعدت هستيريا الطائرات، لقد جُنّت السماء. جُنّت تمامًا، يُنذر هذا الفجر بأن هذا اليوم هو آخر أيام الخليقة. فأين يضربون؟ أين لا يضربون؟ وهل تتسع منطقةُ المطار لكُلِّ هذه القذائف القادرة على قَتْل بحر؟.. افتح الراديو فأضطر للاستماع إلى الإعلانات التجارية السعيدة: ساعة سيتزن لضبط الوقت. سجائر ميريت، نكهة أكثر ونيكوتين أقل. تعال إلى مالبورو تعال إلى حيث المتعة، ميّة الصحة، صحة صحة من جبل عالي، ولكن أين الماء؟ غنج متزايد عن يوم عادي من أيام حرب عادية، عادية في نشرة الأخبار، أحوِّل إبرة الراديو إلى إذاعة لندن، الفتور المميت ذاته في أصوات مذيعين يدخنون الغليون على مسمع من المستمعين.

والقهوة لا تُشرب على عجل. القهوة أختُ الوقت. تُحتسى على مهل.. على مهل.. القهوة عادة تلازمها بعد السيجارة عادة أخرى هي.. الجريدة.

فِي حضرةِ الغِياب

الحنينُ مُسامرة الغائبِ للغائبِ، والتفاتُ البعيدِ إلى البعيد.
الحنينُ عطشُ النَّبعِ إلى حاملاتِ الجرار، والعكسُ أيضاً صحيح.
الحنين يجرُّ المسافةَ وراءً وراءً، كأن التطلُّع إلى أمام، وقد سمِّي أملاً، خاطرة شعرية ومغامرة.
فعلُ المضارعِ حائرٌ متردِّد، وفعلُ الماضي النَّاقص معلّقٌ على سروَة وقفتْ خلفَ تلّة، على ساقِها الرَّاسخة، والتفَّت بأخضرِها الدَّاكن، وأرهفَت السَّمع إلى صوتٍ واحد: صوت الريح.
الحنين هو صوتُ الرِّيح.

وكلما توغلَّتَ في وحدَتك، كتلك الشَّجرة، أخذكَ الحنينُ برفقِ أمومي إلى بلده المصنوع من موادَّ شفَّافة هشَّة، فللحنين بلدٌ وعائلةٌ وذوقٌ رفيع في تصفيفِ الأزهار البريَّة.
وله زمنٌ منتقىً برعايةٍ إلهية، زمنٌ أسطوري هاديء ينضج فيه التِّين على مهَل، وينامُ فيه الظبي إلى جانب الذِّئب في خيالِ الولد الذي لم يشاهد مذبَحة.
ويطوف بك الحنين، كدليل جنَّة سياحي، في أنحاء بلاده، ويصعدُ بَك على جبل كنتَ تأوي إليهِ وتتمرَّغ في النَّباتات البريَّة، حتى تتشرَّب مسامُّ جلدكَ برائحةِ المريَمية.
الحنينُ هو الرَّائحة.

وللحنين فصلٌ مدللٌ هو الشِّتاء.يولدُ من قطرات المَاء الأولى على عُشب يابس، فيُصعِّد زفرات استغاثة أنثويَّة، عطَّشى إلى البلل. وعدٌ بزفاف كوني هو المطر. وعدٌ بانفتاح المغلق علَى الجوهر، وحلولِ المطلق في مَاهياتٍ. . . هو المطر.

كم من سنديانة هناك تشرئبُّ إلى اثنين: أنتَ وهيَ، تركضَان تحت المطر، بلا مظلة وبلا قبعة، سعيدين بفضيحة شريفة، سعيدين بنصف عري.تركضَان ولا تعرفان إلى أين، متحرِّرين من الطَّريق ومن الهدف.تلهثان معاً من تعبٍ لذيذ السَّبب.
وتندسَّان في جوف سنديانة ضيِّق لا يتَّسع إلا لواحد. فتلتصق بكَ وتلتصق بها حتى تصيرا اثنَين في واحد.
وتعتصركَ وتعتصرها فيسخنُ الماء عليكما وفيكما وتلهثان من الدِّفء، ولا تحتاج الشَّهوة إلى ذريعةِ المطر الذي أدخلكما إلى مخدع السنديانة وانصرف.
الحنين هو اختلاط النَّار في الماء.

وللحمَّى صفةٌ أخرى هي الحنين. في كلِّ شتاء يُوجعك فرحٌ غائبٌ، وتمشي تحت المطر واحداً في اثنين: أنتَ ومن كنتَه في شتاء آخر، فتُفتفت إلى نفسك كلاماً لا تفهمه لعجز الذَّاكرة عن استعادة العاطفة السَّالفة، ولقدرة الحنين على إضفاء ما لم يكن على ما كان، كأن تصبح الشَّجرة غابة، والحجرُ حجلة، وكأن تكون سعيداً في زنزانة تراها أوسع من حديقة عامة، وكأن يكون الماضي واقفاً في انتظارك غداً ككلب وفي.
الحنين يكذب ولا يتعب من الكذب لأنه يكذب بصدق.
كذب الحنين مهنة. والحنين شاعرٌ محبطٌ يعيد كتابة القصيدة الواحدة مئات المرات.
وعجوزٌ ما زال يحبو لأنه نسيَ حركة الزَّمن وتحاشى النَّظر في المرآة.
الحنين هو التزوير البريء للوثائق لحماية مرجعيَّة المنفيّ من الصَّدأ.
وهو الكلس الضروري لتلميع البيوت المهجورة.

لكن أحداً لا يحنُّ إلى وجع أو هلع وجنازة.
الحنين هو اختصاص الذاكرة في تجميل ما احتجب من المشهد، وترميم شبَّاك سقط دون أن يصل سقوطه إلى الشارع.
والحنين قصاصُ المنفى من المنفيّ، وخجل المنفيّ من الإعجاب بموسيقى منفى وحدائق. . . فأن تحن يعني أن لا تغتبط بشيء، هنا، إلا على استحياء.
لو كنت هناك لقلت.لو كنت هناك لكانت ضحكتي أعلى وكلامي أوضح.
فالحنين هو توق الكلمات إلى حيِّزها الأول حتى لو كانت غامضة وغريبة عن الجماعة.
لكني.تقول لنفسك.أوثرُ الاغتراب في المنفى على الاغترابِ في البيت، ففي المنفى ما يوجبُ ذلك.

لذلك تحنُّ في الزحَام إلى نفسك، إلى خلوة للكتابة. الكتابةُ اقترابٌ واغتراب يتبادلان الماضي والحاضر.
ظمأ الكلمات إلى ماء يلمع في سراب الأسطورة، وانقلاب التشبيه على المشبَّه، وتمويه الواقع بالصورة، بيَدي الحنين الحريريَّتين تروِّض المسافة. . . إذ تسقف سماءك بكواكب مستعارة، وتمضي مع امرأة أخرى، حقيقيَّة، إلى غرفة دافئة، معافى من أسباب الحمَّى، ومن أنين متقطِّع لا يكتمل.
فلصوت المطر على الزُّجاج هيَاج الرَّغبة.
ليس أكثر من هذا ليبزغ الضوء من ليل الجسد: سريرك سرُّك/ماضيك يأتي غداً/ على نجمةَ لا تصيب النَّدى/بأذىً.
تلقي برأسك على ركبتيها لتستمع على ما

يقول الجسد الخالي من الحنين، فقد خُلقت حواء للتَّو، وللتَّو ولدتَ بلا ذاكرة.
أنت غدي وحاضري ولا أمس لي.تقول لها.
وتقول لك: أنتَ غدي وحاضري و لا أمس لي.
تنامان اثنين في واحد، ولا تحلمان بما هو أكثر من هذا.لم يسأل أحد منكما الآخر عن معنى الاسم، من شدَّة ما كان مجهولكما الشَّهي عاكفاً على تأجيج الفتنة. تفتنكَ وتفتنها. وبعد أن تمتلكها وتمتلكك، وتمتليء بها وتمتليء بك، يناديك ما يناديها من أقاليم البعيد، فتحنُّ هي على ماضيها خلف الباب، وإلى أغنية غير أغنيتك/

الحنين إلى البداية، إلى الطَّريقة التي تمَّ بها إيلاجُ المفتاح في قفل الباب.
وإخفاء النَّظرة عن غايتها. واختيار المقعد وموسيقى الليل بعفويَّة متمرِّسة.هو التَّمرين العاطفيُّ على جسِّ نبض الكون.
وهو، أي ذاك الحنين، استرجاعٌ للفصل الأجمل في الحكاية: الفصل الأول المرتجل بكفاءة البديهة.

هكذا يولد الحنين من كلِّ حادثة جميلة، ولا يولد من جُرح. فليس الحنين ذكرى، بل هو ما يُنتقى من مُتحف الذَّاكرة.
الحنين انتقائيٌ كبستاني ماهر، هو تكرارٌ للذكرى وقد صُفِّيت منَ الشَّوائب.
وللحنين أعراضٌ جانبية من بينها: إدمانُ الخيال النَّظر إلى الوراء، والحرج من رفع الكُلفة مع الممكن، والإفراط في تحويل الحاضر إلى ماض، حتى في الحبِّ: تعالي معي نصنع الليلة ماضياً مشتركاً.يقول المريض بالحنين.
سآتي معك لنصنع غداً مشتركاً.تقول المصابة بالحب.
هي لا تحب الماضي وتريد نسيان الحرب التي انتهت.
وهو يخاف الغد لأن الحرب لم تنته، ولأنه لا يريد أن يكبُر أكثر.

الحنين ندبةٌ في القلب، وبصمةُ بلدٍ على جسد.
لكن لا أحد يحنُّ إلى جرحه، لا أحد يحن إلى وجع أو كابوس، بل يحن إلى ما قبله، إلى زمنٍ لا ألم فيه سوى ألم الملذات الأولى التي تذوِّب الوقت كقطعة سكَّر في فنجان شاي، إلى زمن فردوسيّ الصُّورة.
والحنين نداءُ النَّاي للناي لترميم الجهة التي كسرتها حوافر الخيل في حملةٍ عسكريَّة.
هو المرض المتقطِّع الذي لا يعدي ولا يُميت، حتى لو اتَّخذ شكل الوباء الجمعي.
هو دعوة للسَّهر مع الوحيد، وذريعة العجز عن المساواة مع ركَّاب قطار يعرفون عناوينهم جيداً.
وهو ما يجمع لأحلام الغرباء من موادّ مصنوعة من شفافيَّة اللاشيء الجميل، ويحمِّص لهم بنَّ اليقظة.
ونادراً ما يأتي صباحاً. ونادراً ما يتدخل في حديث عابر مع سائق تاكسي.
ونادراً ماً يتطفَّل على قاعة مؤتمر، أو على الموعد الأول بين أنثى وذكر. . . هو زائرُ المساء، حين تبحث عن آثارك في ما حولك ولا تجدها، حين يحطُّ على الشُّرفة دوريٌّ يبدو لك أنه رسالة من بلد لم تحبه وأنت فيه، كما تحبه الآن وهو فيك.
كان معطىً وشجرة وصخرة، وصار عناوين روح وفكرة، وجمرة في اللُّغة.
كان هواءً وتُراباً وماء، وصار على القصيدة.

الحنين أنينُ الحق العاجز عن الإتيان بالبرهان على قوَّة الحق أمام حقِّ القوة المتمادية. . . أنين البيوت المدفونة تحت المستعمرات، يورثه الغائبُ للغائب، والحاضر للغائبَ، مع قطرة الحليب الأولى، في المَهَاجر والمخيمات.
الحنين صوت الحرير الصاعد من التوت إلى من يحن إليه في أنين متبادل.
هو اندماج الغريزة بالوعي وباللاوعي.. وشكوى الزَّمن المفقود من ساديَّة الحاضر.

الحنين وجعٌ لا يحنُّ إلى وجع. هو الوجع الذي يسبِّبه الهواء النقيُّ القادم من أعالي جبل بعيد، وجعُ البحث عن فرح سابِق.
لكنهُ وجعٌ من نوع صحي، لأنهُ يذكرنا بأنَّنا مرضى بالأمَل. . . وعاطفيون!